يوسف الصائغ

الاعتراف الأخير

لمالك بن الرَيب



سيرة ذاتيـة

الجزء الثاني

يوسف الصائغ

الاعتراف الأخير

لمالك بن الريب

سيرة ذاتية

الجزء الثاني

بغداد

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م




مكتبة
الفكر الجديد

الاعتراف الأخير

لمالك بن الريب

سيرة ذاتية




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الاول

حب الشباب




مكتبة
الفكر الجديد

كنت ادرك أن خطاياي تزداد يوما بعد يوم •• وأن عقابا ما ، سيلحقني بسبب هذه الخطايا ــ يتناسب ، ومقدار ما كنت احسه ، من تلذذ وهوان •• ولقد كان خيالي ، في الساعات التي تعقب تلذذي ، يخترع انواعا عديدة من العقاب ، اروح انخرط بسبب الخوف منها ، في جيش النادمين ، الذين يقفون نسقا ، عند منبر الاعتراف ••

واذا كان مجرد الاعتراف قد قدم لي في اول السنوات ، احساسا تاما بالبراءة ، والنقاء ، ومن ثم بالخلاص ، فان كثرة السقوط في الخطيئة ، تعقبها لجاجة ، ومثابرة على الاعتراف ، سرعان ما جعلتني ، اشك في صدق النقاء الذي يهبه لي الكاهن ، وقوة الخلاص ••

كنت أقول لنفسي •• لقد غدا الامر مثل لعبة مملة ، ومكشوفة : أرتكب الخطيئة ، ثم اعترف ، واعود من جديد ، فارتكبها واعترف •• هل يعقل أن الله ، لن يكتشف مبلغ ما في هذا الامر ، من استهانة ، بحيث ، يبقى ، امثالي ، رغم كل هذا ، بمنأى عن العقاب ؟

من هنا ، ابتدأ التوجس •• ومن مكان هذا التوجس الصعب ، رحت انتظر ، عقابا مبهما ، سيحل بي •• عقابا لا استطيع ، بايما منطق ، أن اتحاشاه ، أو أن اعتذر عنه ••

وقد جاء العقاب ••

ولما كانت الخطيئة تصدر عن الجسد ، قبل الروح ، هكذا ، حل العقاب عن طريق الجسد ، وسيتخذ شكل الفضيحة ••



حدث ذلك في الصيف الحامض والمرير ، الذي كـان يفصل بين مرحلة الابتدائية ، والمتوسطة ..

كنت امشط شعري أمام المرآة .. ولفت انتباهي ، أن أنفي ، لم يعـد كما عهدته ، فكأنه أنف ولد سواي .

أنف مزموم .. فيه احمرار ، تلتمع قصـبته ، بفعل زيت خفي ، وينفتح المنخران ، دونه ، بطريقة مبتذلة .. ويتحركان ، بفعل عضلة خفية ، تخضـع لهواجسي .. فهو أقرب لحيوان غريب ، شره ، وبليد ، وأخرق ..

حولت عيني عن هذا الانف الذي لا اعرفه .. واستنجدت ، بسـائر الملامح التي في وجهي .. فهالني ، أن كل تلك الملامح ، كانت تبدو ، خاضعة، لسلطان هذا الانف الغضروفي .. فهي مشـوهة ، وغريبة ، بسـبب طغيانه المستمد من الموضع الذي يشغله وسط وجهي ..

قلت لنفسي ، انني ، لاشك واهم .. وأن هناك خللا ما لابد من تلافيه أو اكتشافه بعد قليل .. ولكن اعماقي ، كانت قد استسلمت ..

كم مرة ، عدت ذاك اليوم ، الى المرآة ، استشيرها ، في هذه الفضيحة ، علها ، تفصح لي ، أنني كنت واهما .

وعبثا ..

ظل هذا الانف الظالم ، في مكانه ، محتفظا بخواصـه .. ممتلئا بها .. ومن عجب ، أنه ، رغم غطرسته هذه ، ظل لاشهر عديدة ، غير مؤهل لان يلفت اليه انتباه الاخرين .. وبقيت وحدي ، أداري هـذا الاكتشاف الرهيب .. وأفهمه .. واحقد عليه ..

ثم انتهى الصيف ..

والتحقت بالمدرسة المتوسطة ، مرتديا ، لاول مرة ، السروال الظويل ، (بعد أن بقيت ارتدي السروال القصير سـنوات) مزدهيا ، بأول علامـات (رجولتي) ، ومتباهيا بشعري ، الذي ، تعلمت كيف اتقن تسريحه :



ذلك الولد الذي اسمه (موريس لنزدي) ، الذي له أب انكليزي ، وأم ارمنية ، التحق بنا ، ونحن في الصف الخامس ، من المدرسة الابتدائية .. فصار آيـة من آيات المدرسة ..

كان ذا بشرة برونزية ، وعينين واسعتين زرقاوين .. وكان شعـره من ذهب خالص ، يمشطه بطريقة فريدة ..

ولقد توسلت ، ذات يوم (بموريس) أن يعلمني كيف امشط شعري على طريقته ، وكيف يتأتي لي ، ان اجعل فوق جبيني ، تلك الخصلة المترفة ، بحيث تتقوس على نفسها ، مكتفية بقوامها ، ومزدهاة بلمعانها الجميل ..

رد عليّ الولد « موريس » بخطورة ، أن شعري لا يصلح لهذا النوع من التصفيف ، وانه حتى لو صلح ، فمن اين لي ذاك الزيت الخاص ، الذي يدهن به هو شعره ، والحلاق البارع ، الذي يحلق عنده ..

شعرت بذلة لطريقته في الرد عليّ ، ووعدت نفسي ، بسبب ذلك ، ان انتقم منه ، وانصرفت عنه ، مدعيا انني انما طلبت منه ذلـك على سـبيل السخرية ، لان اسلوبه في تصفيف شعره ، ما هو الا اسلوب يليق بالبنات ، ولا يصلح للأولاد ..

ولم تمض بضعة ايام ، حتى جاءني ابن « الانكليزي » هذا ، يعرض عليّ أن يعلمني كيف اسرح شعري .. ثم اضاف :

ـ لكن بشرط ..

ضحكت منه ، كاتما لهفتي لعرضه ورغبتي في معرفة الشـرط الـذي يشترطه . فزاد ذلك من الحاحه :

ـ الشرط ليس صعبا ..

ـ لا اريد..

ـ كل ما هناك .. ان تقنع (حازم) ان يكون صديقي .. كما هو الان صديقك..

ـ وسأزيد ، فاعطيك دفترا كاملا من الزهور المجففة ..

ـ تكذب ..

ـ والله العظيم ..

لم اساله لمـاذا يريد ان يصادق « حازم » ، فقد احسست بنوع من الغرور والغيرة في آن واحـد .

علمني « ابن الارمنية » ، كيف امشط شعري على طريقته .. ولكـن ذلك لم ينقذني من احساسي الذي راح يتضخم بأنفي .. كان يبدو لي أن أنفي



يكبر يوما بعد يوم ، في حين يزيد وجهي نحولا ، وتبرز عظام فكي ووجنتي بطريقة بائسة ..

— يا ربي ..

كنت أقولها في اعماقي ، بذلة ، وأنا أشيح عن المرآة ، منطويا على ضيق شديد .. حتى جاء وقت بدأ هذا الانف ، يثير انتباه الاخرين ، وتندرهم ..

— أي أنف هذا ؟

فأرد بحقد ، كما علمتني عمتي الحولاء ..

— وماذا به ؟ أنف رجل .. وليس كأنفك الذي يشبه أنف البنات .. ومن عجب ، أن هذه الاجابة ، كانت كفيلة بأن تسكت الاولاد ، وتجعلهم يلمسون انوفهم الجميلة ، ويدافعون عنها ..

ولكن ذلك ، لم يخفف من وطأة احساسي العميقة بفضيحة أنفي .. كان يبدو لي أنه يكشف من اعماقي اسرارا ، وخفايا ، لم أتجرأ على أن اعترف بها لنفسي .. ولهذا ، كنت غالبا ، ما ألجأ ، على غير وعي مني ، الى اخفائه باصابعي .. وأمي تصيح بي :

— لا تلعب بانفك .. انظر ، كيف بدأ يكبر لكثرة ما تلعب به ..

أية محنة هذه ؟..

وما كنت أدري ، أن المحنة ، لن تلبث أن تشتد .. وأن العقاب ، سيكون أكبر مما توقعته ..

فذات مساء ، حين كنت اقرأ في كتاب التاريخ ، ويدي تتلمس ، كالعادة جوانب هذا الانف الظالم ، انتبهت ، الى ان هناك موضعا من أنفي يؤلمني لمجرد أن أمر عليه بسبابتي ..

لم أعر للالم اهتماما .. ولكن الالم فاجأني أول ما استيقظت صباحا . فقد كان ألما محددا وواضحا ، بحيث وجدتني اهرع للمرآة . قالت أمي :



ـ دعني انظر ••

وأمسكت أنفي من أرنبته ، وتطلعت ، وانفاسها على وجهي ، ثم قالت :
ـ مجرد حبة صغيرة •• اتركها وشأنها ، ولن تلبث أن تختفي •• ولكنها لم تختف ••

ظلت لبضعة أيام ، تكبر •• وتكبر ، وتتخذ لونا قرمزيا كحمصة حمراء•• وأمي وأبي •• والمعلم ، يقولون لي :

ـ اتركها وشأنها •• لا تلمسها •• فيمتليء وجهك بحبات مثلها ••
وهيهات فقد كانت تؤلمني••وتزيد من أنفي ضخامة وتشويها،وكنت اتعذب بأن أتلمسها ، بين لحظة وأخرى،لاتأكد من أنها ما تزال تكبر ، وتتوهج ، حتى انفجرت عصر أحد الايام ، وسال منها دم وقيح •• فأخذني أبي الى « سيد مجيد » ذاك المضمد السكير الذي راح يعصرها ، وأنا اتلوى بين يديه ألما •• في حين كان «السيد» يضحك وهو يقول لابي أن هذه «الحبة» هي نوع من « حب الشباب » ••

هل تمنيت يوما ، خلال تلك السنوات التي كنت اتمنى فيها أن اصبح شابا ، أن ينبت لي ، ما دام ذلك جزء من المستلزمات ، « حب الشباب » ؟ هل كنت اعرف أن للشباب «حبا» قبيحا ، يمكن أن يسبب كل هذا القدر من الاسى والاذى والعار ؟

أبداً ••

كنت أرى اولئك الاولاد الكبار في محلتنا ، واميز فيهم علامات شبابهم، من خلال العضلات ، التي يحملونها •• والمنكبين الكبيرين •• واول الزغب فوق الشفة العليا •• وعلى الوجنتين •• واتمنى ذلك من كل قلبي ، لم يخطر لي مرة ، أن هذه البثور التي تعلو وجوه بعض الاولاد ، هي أيضا من علامات الشباب •• بل من اشرس علاماته ••

على العكس ..

كانت هذه البثور ، في وجوه عدد من اعرفهم ، تثير في روحي تقززا واحتقارا .. وبخاصة البثور التي تنتشر في وجه «محمود» صبي صاحب الدراجات .. فلقد كانت لا توحي لي بالتقزز لمجرد منظرها ، بل لانها ، كانت تمثل عندي ، علامات ، أن هذا الولد هو ولد « أدب سز » .. وأن كل الذين تظهر على وجوههم هذه البثور .. هم مثل «محمود» قليلو الادب ، لم يحسن أهلهم تربيتهم ..

ولعل الله سبحانه ، قال في نفسه ، فلينتظر هذا الولد ، ما دام الامر هكذا ، وسيرى ما الذي سأفعله به .. وعلى التوّ أمر الملائكة ، أن يملأوا وجهي ، تماما ، كما ملأوا وجه «محمود» بالبثور .. فاذا بي وأنا في منتصف السنة الدراسية الاولى من المرحلة المتوسطة ، أحمل من هذه البثور ما يكفي لعشرة شباب ..

— آه .. يا ربي

كنت اصدر هذه الآهة من قلب مثقل ، قانعا بالعقاب الصارم الذي حل بي ، وحزينا في الوقت نفسه ، لان يكون القصاص ، ثابتا وعادلا .. وعليّ أنا بالذات .. « تمجد عدلك يا ربي .. لست وحدي الذي يستحق عقابك .. فثمة الكثيرون ممن يرتكبون الخطايا ، مثلي ، واكثر مني .. خذ مثلا ، هذا الولد ابن الارمنية ، « موريس لنزدي » .. انت تعرف جيدا ، ما الذي يفعله موريس .. ومع هذا ، فما من ملاك جاء ووضع بثرة على خده .. بل على العكس ، ان عينيه لتزدادان زرقة .. وشعره ليلتمع الان ، ذهبيا ، باكثر مما كان يلتمع قبل عام .. وأنفه .. وعضلاته .. » .

قالت امي لابي ذات يوم ، وكان « حب الشباب » قد اتخذ مرحلة ضارية في وجهي وحياتي :



ـ خذ الولد الى الطبيب •• ليس معقولا أن تتركه هكذا ••

فصاح بها :

ـ آخذه الى الطبيب ؟• علام •• اهو الولد الوحيد الذي ظهر في وجهه « حب الشباب » ؟

ـ هذا ليس حب الشباب ••

ـ ماذا اذن ؟

وقادني الى « السيد مجيد » ، وسأله :

ـ اتعتقد انه حب الشباب ؟

ضحك « السيد مجيد » ، وشرب جرعة من كأس «العرق» الذي ، يخفيه خلف زجاجات الادوية ، فسأله أبي محرجا ••

ـ حسنا •• اما من دواء لحب الشباب هذا ؟•

حك « سيد مجيد » رأسه ، وقام من مكانه ، فبدا طويلا وطاغيا ، وشممت رائحة المطهّر الذي يستعمله في زرق الابر ، ورأيت لوزام طبية تلمع أمام عيني ••

ـ دعنا نجرب هذا المرهم ••

وقام الى علب على الرف ، فأخذ بضعة من هنا وأخرى من هناك ، بمخرطة معدنية ، وراح يمزج هذه الدهون ، ذوات الروائح النفاذة ، حتى استقام المزيج ، تحت مخرطته •• فوضعه في علبة اسطوانية ، وقال لأبي ••

ـ فليدهن وجهه كل مساء بهذا المرهم •• ولننتظر اسبوعا أو اسبوعين ••

ثم أضاف قبل أن نغادره ، بروح علمية محايدة :

ـ ولكنني ، بصراحة ، لا أعرف حتى الان دواء ينفع لحب الشباب •• لا دواء ••

انقبضت روحي .. وفي الطريق ، فكرت بامتحان نصف السنة ، وبدرس الحساب وموضوع « الحسم والفائدة » .. وبما قاله الكاهن في الاعتراف الاخير .. وقبل أن أنام ، تلوت صلاة حارة ، ثم أخذت المرهم ، ودهنت وجهي ، ففاحت رائحة نفاذة ، عرفت بعد سنوات أنها رائحة الكبريت المميزة.. ولكي لا يلطخ المرهم وسادتي وضعت أمي على الوسادة ، منديلا .. فشعرت بالتقزز من نفسي .. ونمت نوما مضطربا .

ــ اوف .. يا ربي ..

كم من مرة حلمت وأنا بين النائم واليقظان ، وبعد صلاة حارة قلتها من كل قلبي ، أن أنام ، واستيقظ ، فاذا بهذه البثور قد اختفت ، واذا بوجهي يعود الى سالف نظافته .. ولقد كنت من فرط حاجتي الى هذا المعجزة ، اقنع نفسي ، بانها ستتحقق ذات يوم .. ولكن أملي كان يخيب ، كل صباح ، وأنا اتجه بلهفة الى المرآة ، فارى وجهي على حاله ، بل أرى أن «حبة» جديدة قد نبتت في مكان جديد ..

قالت ابنة خال امي ، التي كان أبوها قبل عشرات من السنين مأمور البريد :

ــ سنة .. أو سنتين ويصفو وجهه .. ذاك أمر طبيعي ..

وغمزت بعينها غمزة بدت لي شديدة الدعارة . فتطلعت اليها حاقدا ، وخجلت لانها ، بدت وكأنها ، تعرف اسرارا عني ، لا يعرفها أحد ، لمجرد أنها طالبة في الصف المنتهي من الكلية الطبية ..

أجابتها أمي ، وهي تدق على الخشب :

ــ ولكنه ما يزال بعد صغيرا ..

ضحكت الدكتورة الصغيرة وقالت :

ــ لم يعد صغيرا .. انظري .. لقد بدأ شارباه بالظهور ..



فتطلعت أمي اليّ باعتزاز ، وأضافت بدعابة :

ــ وصـــوته ...

وضحكت ، مضـــيفة :

ــ حتى صوته ، بدأ يتغير ..

كنت اصغي الى هذا الحوار ، بمشاعر متناقضة ، من الفضول والهوان والمباهاة .. والخجل .. متخيلا نفســي ، ومنظر وجهــي ، وأنا جالس ، بين مجموعة من النساء ، يتفحصنني ، ويومئن الى علامــات جديدة ، يعيشـــها جسدي ، مقدرا أنهن ، ان كن قد لاحظن هذا كله فهن لابد ، يعرفن ، اشـــياء أخرى .. يا للخجل .. ولكنه يا للغرابة ، خجل ، يبقى ، رغم كل ذلك ، لذيذا، فهو يثير الفضول ، والشبهة ، ويتركني ، حائرا ، كيف اتصرف .. ان كـــان يصح أن اعترض ، أو أن اسكت ..

ــ قومي نذهب الى البيت ..!

قلت ذلك لوالدتي ، وسمعت صوتي بأذني ، كأنني اسمعه لاول مرة ..

كان صوتا غريبا ، فيه خشونة ، تقرب من الحشرجة .. فهو صوت ولد سواي .. غريب .. وأخرق .. وغير متسق ..

ــ لمـــاذا ؟.. خجلت ؟..

قالت الطبيبة الصغيرة .. وتطلعت اليّ ضاحكة ، فتخاذلت امام عينيها ، وخفت أن اتطلع اليها ، وهي تضـــع ســـاقا على ساق ، حـــذر أن تكتشـــف رداءة نظراتي ..

ما الذي يجري ؟

كان لابد أن يشرح لي أحد ، هذا الظلم الغريب الذي اعانيه ، ويفهمني سر هذه العلامات الشاذة التي يعانيها جسدي .. ولكنهم اكتفوا بالتطلع اليّ ضاحكين ، كأن هذا الذي يجري ، هو أمر لابـــد منه .. وكنت لا أفتأ أقول



لنفسي : « حسنا ، ان كان الامر كذلك ، فلماذا يحدث لي أنا وحدي ؟ لماذا لم يكبر أنف فلان •• أو يتبدل صوت فلان •• ولماذا لم يظهر حب الشباب على وجه هذا أو ذاك ، من طلبة المدرسة الذين نجحوا معي من الصف السادس ؟•• وليت الامر توقف على الانف والصوت •• وحب الشباب •• ثمة اشياء أخرى رهيبة ••

ــ أوف يا ربي ••

كان « حب الشباب » ، يشكل وحده كارثة •• ولم يكن يمضي شهر ، أو أقل أحيانا ، دون أن تنضج من هذا الحب في وجهي ، حبة ، وتتورم ، فتحكم بحجمها الكريه ، ولونها القرمزي ، مساحة من وجهي تلويه ، وتجعلني مشوها •• حتى تنفجر ، فتلطخ وسادتي•• او قميصي •• حتى لقد صادف مرة أن حبتين نضجتا في آن واحد •• فصيرتا مني مسخا أمام الجميع ، قال أبي:

ــ أما تأتي معي ، فآخذك الى الدكتور « عبدالباقي » ؟

والدكتور « عبدالباقي » ، واحد من أقارب أبي ، عاد قبل سنتين من الخارج ، واتخذ له عيادة قرب (السرجخانة) •• ولقد حدق بي «عبدالباقي» هذا ، وضحك من كل قلبه لمحنتي •• وراح يشرح لابي ، وهو يعبث ، بطرف سماعته الجديدة ، المبررات العلمية لـ « حب الشباب » ، والتجارب الجديدة ، التي قال أنه قرأ عنها مؤخرا ، لمعالجته ، ثم راح يسألني فجأة ، اسئلة معيبة ، احرجت أبي ، مثلما احرجتني ، فهمهم :

ــ دعك من هذه الاسئلة يا دكتور ••

ولكن « عبدالباقي » احتج لحياء أبي الذي لا مبرر له :

ــ لقد كبر الولد يا عم •• ومن الضروري أن يعرف •• وأن يفهم ••

أجابه أبي مداريا :

ــ أجل •• ولكن بعدئذ •• بعدئذ •• المهم ان كان هناك دواء ••



ـ لا دواء ..

قالها الدكتور ، واهدر ضحكة كبيرة ..

في الصف الثاني من دار المعلمين العالية ، (وكان قد مضى على موت أبي بضع سنوات ، ولم يتبق في وجهي من حب الشباب سوى آثار خفيفه ..) انتبهت الى اعراض في جسدي أقلقتني ، وذكرتني بما كنت قد قرأته في احدى المجلات الطبية عن مرض يمكن ان يصيب من يرتاد دور البغاء ..

عذبني القلق .. والشك .. فاستجمعت شجاعتي وذهبت الى الدكتور « عبدالباقي » ..

كان آنذاك ، قد تزوج بنت ارملة ثرية ، وانتقل الى بغداد ، واتخذ لـه عيادة في « الباب الشرقي »

استقبلني بالضحكة المجلجلة نفسها ، وكشف ، بطريقة محايدة ومهنية ، عن موضع دائي ، وشكوكي .. ثم خلط حكمه الرهيب بضحكته المجلجلة .. وهو يلفظ اسم ذاك المرض الذي بقيت اخافه ، طوال سنوات مراهقتي ، كلما وقعت عيناي على اسمه في كتاب او مجلة طبية ..

تطلعت اليه بخمول غريب .. وراح عرق بارد يتصبب فوق جبيني .. وعبثا حاولت ان ادافع عن نفسي ، وابرهن للطبيب على استحالة ان اكون قـد اصبت بهذا المرض ..

واذا كنت افعل ذلك ، بهلع حقيقي ، واستماتة ذليلة ، فقد عاد يضحك مني ، ويغسل يديه بعناية ، وينشفهما باهتمام ، مهونا عليّ الامر .. واصفـا لي الدواء الذي ينبغي ان اتلقاه ..

أخذت منه الوصفة التي كتبها لي ، واتجهت الى الباب لأهرب .. لكنه استوقفني ضاحكا :

ـ اماتدفع أجر المعاينة ؟

ـ طبعـا ...

قلتها بذلة شديدة .. ومددت يدي الى جيبي الذي لم اكن احمل فيه سوى ربع دينار ..

قدمت له « ربع ديناري » ، فأخذه وودعني ، وصوته يرن في اذني :

ـ تدفعون للقحبة ... ولا تدفعون للطبيب !..

عدت الى « القسم الداخلي » مندحرا مظلوما ، وحكيت سري لصديق اثق بـه ، فنصحني ان لا اصدق ما قاله الطبيب ... قال لي :

ـ امر كهذا يحتاج الى فحص في المختبر .. هل ارسلك للفحص في المختبر ؟ ..

ـ اذن لا عليك .. اغلب الامر انـه مخطىء ..



واخذني في اليوم التالي الى طبيب الكلية ، الذي بعث بي الى المختبر .. وبعد يوم من العذاب ، تبين لي ان « عبدالباقي » حمار .. وان مخاوفي ، لم تكن في محلها..

يا لتلك السنوات ..

كنت وحيدا ، وضعيفا ، في عالم كبير يحتويني ، ويلعب بي ، ويغيرني من غير ما سبب واضح ، وبطريقة خشنة ، وصارمة .. وما كان ثمة من معين ، فالذي يحدث لي ، وما احسه ، واعانيه ، لا يصلح أن الجأ ، لتحاشيه ، أو أو لفهمه وتفسيره ، الى أمي .. أو عمتي .. وكانت منذ خلقت عوني وملاذي وما كان ممكنا عدا هذا ، أن اشتكي الى أبي وعمي .. بل لم يكن ممكنا حتى أن اشتكي الى الله وقديسيه . فانا ــ يومذاك ــ كنت موقنا أن هذا الذي يحدث لي ، انما يحدث ، بقرار الهي ، لا يصح الاعتراض عليه ، ولكن يمكن بين حين وآخر ، الاعتذار عن ثقل وطأته ، بالصلاة ، والاعتراف .. يتلو ذلك، استسلام خنوع لانه (لا كأرادتي .. بل كأرادتك ..) .. ألم يقل ذلك المسيح ، في بستان الزيتون ، حين احس مرارة الكأس التي ينبغي له أن يجرعها .. يوم حزن ، وخاف ، وصار عرقه ينحدر من جبينه على الارض (مثل عبيط الدم) .

ــ يا ابتاه .. ان كان يستطاع .. فلتعبر عني هذه الكأس .

قالها من وهدة يأسه .. ثم استدرك ..

ــ ولكن .. لا كأرادتي .. بل كأرادتك ..

ولقد كان لزاما علي ، وأنا في المراحل الاولى من الدراسة المتوسطة أن أقر ، أن ارادته هو ، هي التي ارتضت لانفي أن يصير كبيرا بهذه الدرجة ، وانها هي التي وزعت « حب الشباب » بهذه الطريقة القاسية في وجهي .. وأن صوتي .. والزغب الذي بدأ ينتشر في خدي وتحت انفي .. وأن .. وأن كل هذا ، انما يجري بارادته ..



قالت أمي لعمتي :

ــ الا ترين ؟•• لقد نبت له شاربان ••

فابتسمت الحولاء بحنان •• وهرعت اتطلع للمرة الالف ، الى وجهي في المرآة متخيلا نفسي ، وقد نما لي شاربان حقا ، كشاربي أبي •• او لحية كلحية عمي •• وقد احسست لذلك سعادة حقيقية ، خففت عني العذاب الذي كان يسببه لي منظر حب الشباب •• وخرجت للتو الى الزقاق ، أتباهى ، بشاربين وهميين ، ما زالا ، في حقيقتهما ، أقرب لان يكونا ظلين مبهمين •• كمن ترك الاوساخ تعلو شفته وجانب وجهه ••

ــ انظـــروا

وحدق الاولاد الى (شاربي) بحسد واضح •• بحيث لم يملك اكثر من واحد منهم أن يسألني :

ــ ولكن كيف •• ماذا فعلت بحيث نما شارباك •• وأنت لست اكبر منا •

واذ اسكرني حسـدهم ، وأغرتني حيرتهم ، تذكرت عذابي ، فرحت اهمس لاحدهم بالسر •• وأتأمل ملامحه ، وهي تمتلىء فضولا ، ودهشة وشـراهة ••

ــ اهذا معقول ••

ــ جـرب ••

كنت أقول ذلك ، مرتعدا ، بتأثير نميمتي •• ولذة المشاركة ، متغاضيا عن فداحة الخطيئة الجديدة التي ارتكبتها ، وعن العقاب الاكيـد ، الـذي سيحل بي بسببها •• حبة قرمزية جديـدة ، تنبت ، هـذه المرة خلف أذني ، وتكلفني عذاب شـهر كامل :

« **ولكنني لفرط المحبة**



اخطأت في النحو ...

فاسود لون الطباشير

واحمر وجه المعلم

وامتلات وجنتاي بحب الشباب »

وخفف عني الادمــان ..

لقد أدمنت حالتي .. ذلك الطغيان من اللذة والندم والشد والاستسلام والامل والخيبة .. وانصـرفت الى التعويل ، عن قبول حقيقة أنني ، في كل ذلك ، بدات أكبر .. وانزع ملابس طفولتي ، متفتحا ، بين حين وآخر ، كمن يصحو من كابوس ، على دنيا عامــرة ، وعالم لذيذ .. يتقاســمه الملائكــة والشياطين .. وتتنازعه اللذة والالم . فاذا أنست الى ذلك ، انصرفت بشغف الى القراءة التي كنت قد اكتشفتها قبل قليل .. أو الى الرسم . وكنت قــد سحرت به خلال صيف كامل .



الفصل الثاني

القديس ارسين لوبين





مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني

القديس ارسين لوبين

كان «القديس» ينتظرني ، ظهيرة ، أحد أيام الصيف في تلك « العليّة » الغريبة التي تتصل بغرفة الضيوف ..

وجهه ناحل .. وعيناه زرقاوان .. وقبعته الانكليزيـة تكاد تخفي في ظلمة «العلية» بعض ملامحه ، فيبدو مبهما حينا ، وأليفا أحيانا ..

من أين جاء هذا القديس الى حياتي ..

وكيف تسلل الى بيتنا ، واختار لنفسه هذا المخبأ الغريب ، والشـاذ ، فهو أقرب ما يكون الى لص ، يتخفى بين الاثاث القديم ، حيث الغبار ، والعتمة وروائح الجرذان ، والافاعي ، والاخشاب القديمة ..

قلت انه كان ينتظرني ..

ولقد تبينت أول ما تبينت عينيه الذكيتين ..

كانتا تتطلعان الي دونما أي سطوة أو تهديد .. بل بقوة وعود خفية .. واطمئنان صعب ..

ولم يتسلل الى روحي أي قدر من الخوف أو الرهبة اللتين اعتدتهما في حضرة كل القديسين الذين عرفتهم من قبل .. وما استطعت يوما أن اشـعر بالاطمئنان في حضورهم ..

قديسون ماتوا قبل مئات الاعوام ، فلهم قبور ومزارات .. وايقونات وصور . نصلي لها ، ونشفع عندها .. وقد تصغي لطلباتنا ، أو لا تصغي .. فهي أيضا ، ذات مزاج غير منطقي أحيانا ولا مفهوم ..

لكن القديس ، الذي التقيته ، في «العليّة» ذات يوم ، صدفة ، كان من نوع آخر .. وعلى الرغم من انه لم يكن يشبه القديسـين ، في امور كثيرة ، فقد ايقنت من الوهلة الاولى ، أنه قديس .. واقنعت نفسـي ، بأنه يجـدر



بالقديسين ان يكونوا هكذا ، تماما ، مثل هذا القديس ، الممتلىء ذكاء وقدرة، بحيث لا يسمح لاحد أن يظلمه ، أو يعتدي عليه ، فهو أبدا ، يخرج من معاركه مع الشر ، منتصرا بفضل قوته وحذقه •• ليروح من جديد يتهيأ لمعركة جديدة•

قاومتني وساوسي ، ولقد كانت تتذرع بحجج كثيرة ، تصلح كل حجة منها ، لدحض قناعتي ، وأبسطها أن «اللص» لا يمكن ان يكون قديسا ••• وهذا الذي التقيته صدفه ، اسمه « اللص الظريف ارسين لوبين » •• فمن أين له القداسة ؟•• وهو « ظريف » فوق ذلك •• كيف يمكن ان يكون القديس ظريفا ؟••

وادفع عني خواطري ، وأروح أقرأ بشغف •• وتنبهر أنفاسي ، وأنا أتابع « ارسين لوبين » وهو يتسلل الى أحد القصور •• ثم وهو يحتال بمعجزة لفتح باب مغلق •• ثم وهو يقع اسيرا بين ايدي المليونير واعوانه ••

بل هو قديس ••

الفرق بينه وبين القديسين الذين قرأت عنهم من قبل ، انهم في حالة كالتي وقع فيها « ارسين لوبين » ، كانوا كفيلين بأن يستسلموا وهم يرددون صلواتهم ويستعدون للموت •• في حين أن « ارسين لوبين » لن يلبث ان يبتكر بمحض قدرته ، وسيلة يتخلص بها من اسره ويتغلب على اعدائه ، الذين ما صاروا اعداءه ، الا لانهم اغتصبوا حق انسان ضعيف او جاروا على مظلوم ••

قديس ••

وان كان القديسون ، قد تميزوا احيانا بمعجزات باهرة ، كأن يشفوا مريضا ميئوسا من شفائه •• فان لهذا القديس الجديد ، معجزاته الدائمة في أن يحقق الانتصار تلو الانتصار •• ألم يلقوا به مرة في نهر « التايمس » ، بعد أن قيدوه ، وشدوه الى صخرة كبيرة •• واستطاع رغم ذلك كله أن يصنع المعجزة ، وينجو ، لانه كان يحتفظ بمدية في مكان خفي •• استطاع ان يفيد منها ، فيقطع قيوده ويطفو من جديد على سطح الحياة ••



ينبغي ان يكون القديسون هكذا •• وأن يكونوا ظرفاء •• ماذا يضيرهم ان يضحكوا حينا كما يضحك « ارسين لوبين » أو يمزحوا •• او يمجنوا •• بل حتى أن يحبوا ••

ان « ارسين لوبين » ، كما هو واضح ، يحب تلك الفتاة الشقراء « پاتريشا هولم » وهو لا يتردد ، حين يجد متسعا ، أن يقبلها ، امامنا جميعا • ولم يجعله هذا كله ، ينقص قدرا في ذهني ••• بالعكس ••

وأقرأ بشغف ••

ما زلت اذكر اول كتاب وقع بين يدي من كتب « ارسين لوبين » •

كان مرميا في « العلية » بين عدد من الكتب المرذولة ، وقد تمزق غلافه ، واصفرت صفحاته ، واندس التراب بين ثناياه ••

ما الذي اغراني ، في تلك الظهيرة ، أن انصرف الى كتاب لأعرف ما فيه، وأروح أقرأ السطور التي وقعت عليها عيني ؟••

قرأت سطرا باهمال •• ثم سطرا آخر ••

وينبغي أن اعترف ، أنني ما كنت لاستمر في القراءة ، لولا ذاك الحدس المكتوم الذي اصبحت انطوي عليه ، وهو ، ان الكتب المرذولة في « العلية » هي بطريقة ما كتب سرية ، نبذت لسبب مريب ، من مكتبة أبي ، وعمي ، أو من كتب أخي الكبير ••

كان الكتاب كبيرا ومجلدا ، وكانت اوراقه صفراء تماما ، وممزقة غالبا •• ولولا الرسوم الداعرة التي اكتشفتها فيه ، والتعليقات المفضوحة التي تحتها، لما اعرته اهتماما •••

رحت اقلب الكتاب ، واتطلع محموما الى تلك الصور ، التي بدت لي اشبه بكابوس لذيذ •••

وجربت ان اقرا ما هو مكتوب ، فهالني ، عالم غامض ، وصدمتني مفردات ، ما كان مسموحا لي ان اتلفظ بها ، وحيرتني مفردات اخرى ما كنت افهم معناها ••

اي كتاب هذا ؟

كان قلبي يدق بانفعال تحت ثقل الاكتشاف ، وكانت عيناي ، تعيشان تعبا ، بسبب الحروف الغريبة التي طبع بها الكتاب ، وبسبب نصف العتمة التي تسود (العلّية) ثم اخيرا ، بسبب غرابة ما هو مكتوب •••



قررت بطفولة ان انحدر بالكتاب واريه للاولاد في المحلة ، ولانني حدست، أن في هذا العمل شيئا ، غير لائق ، وان ابي او عمي سيغضبان لفعلي ، كما سيغضب الله والملائكة .. لهذا حاولت ان اخفي الكتاب في طيات ملابسي ...

ولكن سوء حظي الذي يلازمني دائما ، كلما اشتد ولعي بأمر من الامور ، جعل ابي يكتشف الكتاب .. ولم يزد على ان اخذه مني دون ان يقول لي كلمة .. حتى ولا كلمة توبيخ ... واختفى الكتاب منذ تلك اللحظة تماما ، حتى غدا، اشبه بشيء حدث في الحلم ، فهو لا يكاد يصدق ...

ولشدة ما كنت احسه من ضغط لاكتشافي ، ومن خيبة ، لان « الكنز » الذي عثرت عليه ، سلب مني ، بسبب غفلتي ، رحت احدث الاولاد عما اكتشفته ... وانا طرب للذهول الذي احدثه فيهم كلامي .. لو لا ان « حازم » كذبني ، فخاصمته من اجل ذلك ، ولم أكلمه لاسبوعين كاملين ..

بعد هذه الحادثة ، اتخذت «العلية» عندي اعتبارا خاصا .. كنت اتسلل اليها ، وأروح ابحث بين الكتب المهملة ، عما يمكن أن يشبه ذاك الكتاب العجيب ، ولم اعثر على شيء ذي بال .. ولكنني خلال بحثي ذلك ، التقيت بالقديس ..

قلت أنني قرأت سطورا من الكتاب باهمال .. ثم لم يلبث أن شدني واذ كنت مقرفصا في مكاني فقد جلست .. ورويدا رويدا .. رحت أنسى نفسي .. حتى انتبهت الى حلول الظلام ، فانحدرت .. وأنا اتوجس ان يسلبني أبي هذا الكتاب ايضا .. ولهذا اخترت جانبا من الغرفة الكبيرة ، وانزويت ، ورحت اقرأ بنهم ..

كان عالما مليئا بالغرابة ..

اذكر أن الاحداث تجري في (لندن) .. وان هناك قصرا قديما يقع في الضاحية .. وأن القديس استقل سيارة ، وترجل قبل وصوله القصر بقليل .. لغة بسيطة واحداث متسارعة ، ومشدودة ..

ـ قم تعش ..

ـ انتظري قليلا ..

ـ ما هذا الذي تقرأه ؟..



وتأخذ أمي مني الكتاب ، وتتطلع اليه ، ثم ترميه لي : وتقول كما ستعتاد أن تقول لي دائما ، حتى اكمل دراستي :

ــ هذا عوضا عن ان تقرأ دروسك ؟

فتح لي « ارسين لوبين » عالما ، لعلي كنت بحاجة اليه ، وقدم لي نموذجا بديلا عن نموذج القديسين ، الذين ما كان بمستطاعي ، ان اكون واحدا منهم، حتى على مجمل الخيال والتخيل ..

أما هنا في « روايات الجيب » تلك ، ومع « اللص الظريف » ، فما أسهل ما كنت انغمر في الاحداث ، كأنني انا « ارسين لوبين » ، وأروح احطم اعدائي، وأفوز باعجاب « پاتريشا هولم » تلك .. فقد كنت ، في مجمل ما انزع اليه ، اتحرك ، تحت تأثير رغبتي في ان أكون معجبا .. وأول ذلك ، أن اعجب نفسي .. فلم تكن ، نفسي في قرارة روحي ، تعجبني ..

قرأت الكتاب الاول الذي وجدته في «العلية» واعدت قراءته .. واذ ساورني الملل وأنا اعيد القراءة ، فقد تسللت الى «العلية» ابحث عن كتاب جديد ، وقد وجدت ــ يا للحظ السعيد ــ كتابين آخرين .. عشت معهما ثلاثة أيام وأنا أسعد ما أكون .

وسرعان ما أدركت ، أن حياتي ستكون ، بعد الان ، مملة ، ان أنا لم اقرأ المزيد .. وكان لابد من البحث عن كتب جديدة ..

ولكن أين ..

استنجدت بمكتبة أبي .. ثم بمكتبة عمي .. كنت ابحث عن « روايات الجيب » وعن تلك العناوين المليئة بالاثارة والطاقة على الخيال « المثلث الدموي » « جواهر التاج » « قصر الارشيدوق » « اهل الكهف .. » .. وعبثا .. حتى وقعت على بضع روايات عن « ارسين لوبين » لدى زوج اختي الكبيرة ، مدير الخزينة .. وكنت سعيدا لابعد الحدود .



كنت اهرب من كتب المدرسة التي بدأت تعافها نفسي •• وعنده كان يمكن ان انسى « حب الشباب » الذي يملأ وجهي ••

بل لقد كان هذا القديس ـ يا للعجب ـ يبعدني عن خطاياي •• ويعوضني عن كل ذلك عالما آخر ، اتمنى لو عشت فيه ، كأن يرتضي بي ، « أرسين لوبين » واحدا من العاملين معه ، تماما ، مثل صديقه الضخم « هوبي بريجز » •• ولم لا ؟

لقد انضم «هوبي» الامريكي هذا الى العمل مع « ارسين لوبين » ، رغم سذاجته ، وطيبة القلب التي تغلب عليه ، بحيث ورط نفسه ، وورط معه القديس مرات عديدة ••

أجل •• التقي « بارسين لوبين » ذات يوم •• فقد يأتي ، لسبب ما ، الى هذه المدينة التي اعيش فيها ، وينتصر للمظلومين ، وسأذهب اليه ، حيثما يكون •• واعرض عليه أن اعمل معه •• بل لقد كان بي من اليقين ، ما يدفعني الى الاحساس ، بأنني ، ساكتشفه ، حتى لو جاء ـ كعادته ـ متخفيا •• او متنكرا •• وأنه سيرضى بي ، ويقبلني ••

ويروح خيالي يستطرد •• فاراني ، أتسلل من البيت ، ذات ليلة ، بعد أن تدق ساعة كنيسة اللاتين الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، وفي الطريق ، اروح اخرج القناع الاسود ، الذي لابد ان يكون القديس قد اعطانيه •• ثم ادلف بدون أن الفت انتباه الحرس ، واقطع الشارع الطويل ، واعبر الجسر ، حتى اصل الى « قصر استرجيان » ، القصر الغريب ، المتوحد في « الجانب الايسر » المبني بطريقة غريبة على النمط الصيني ••

الله لذاك القصر ، كم كان يثير خيالي بسبب غرابته ، ولانسجامه مع المناخ الذي كانت ، تقدمه مغامرات القديس الذي شغفت به ••



سأعبر الحديقة ، واتخلص من الكلب الوحشي الذي اعرف انه يكمن هناك ، بأن ألقي اليه قطعة لحم ملوثة بمسحوق منوم ، ثم اتجه الى النافذة ، واعالجها ..

كيف ؟..

وتمضي الدقائق والساعات .. وأنا في مكاني ، كتاب الدراسة مفتوح أمامي ، وروحي تصنع مغامراتها ، بلهفة ومثابرة وحمية .. فاذا فاضت حماستي خرجت الى الزقاق ، والتقيت الاولاد ، وأنا ما أزال بعد ، تحت نفوذ أخيلتي، ورحت اقترح عليهم ، مغامراتي .. وهم يتطلعون الي ، مندهشين من هذا الهوس الذي انطوي عليه ..

ثم جاء وقت ، كان لابد لي فيه ، من أن اعثر على من يشاركني هوسي ، بل على من يشاركني اكتشافي للقديس « ارسين لوبين » .. اعطيت واحدا من الكتب لـ (حازم) فعافت نفسه قراءته .. واعرتها لـ (زكي) ولكن زكي لم يستطع ان يقرأ من القصة صفحتين ثم رمى بالكتاب ، وانصرف الى عدده وادواته الحديدية .. ولد واحد ، أكرمني ، بأن اعجب بالقصة التي زينت له قراءتها ، ذلكم هو «برهان» ابن مأمور الكمرك .. أخذ القصة وقرأها ، وأعادها الي في اليوم التالي ، وبلهفة سألته :

ــ ها ؟

ــ لم أنم حتى اكملتها ؟

ــ صحيح ؟..

قلتها بانتصار حقيقي ، ومنذ تلك اللحظة ، اكتشفت أن عليّ أن اجعل من «برهان» هذا صديقي .. فرحت اعطيه قصة بعد أخرى ، وهو ، بمثابرة ، يقرأ القصة ويعيدها الي ، فلا اكتفي بأن اسمع منه اعجابه ، بل اذهب الى أبعد



من ذلك ، فأروح امتحنه ، بأن اسأله اسئلة كثيرة ، لاطمئن الى انه قرأ كما قرأت ، وأنه تلذذ تلذذي نفسه.. بل الى انه سيظل يشاركني هذا الولع الخطير.

لم يلبث «برهان» أن قرأ كل الذي املكه من قصص القديس .. وحين لم يعد عندي ، ولا عنده ، ما يمكن ان نقرأه .. ضاقت روحي من جديد .. لقد كنت في الايام التي يقرأ فيها «برهان» تلك القصص ، اعيش ساعات لذيذة أيضا ، وأنا اتخيل تفاصيل هذه القصص ، مستمتعا ، باثر كل منها عليه .. ولقد كان ذلك ، الى حد كبير ، يعطيني ، نوعا من الاحساس بالكفاية ..

أما الان حيث لم يعد لدي ما اقرأه ، ولا ما اعطيه لبرهان ليقرأه ، فقد أحسست بخواء صعب ..

ـ ماذا نفعل

ـ لست أدري ..

قالها باستسلام ، فزادني ذلك ضيقا :

ـ ابحث في مكتبة ابيك .. عل فيها قصة لارسين لوبين .. أجابني بهوان .

ـ ليس عندنا مكتبة في البيت ..

ـ ابحث مع هذا ..

قلتها له بحنق : فذهب عني حزينا ، وعاد الى بعد بضعة أيام ، يحمل قصتين قال انه وجدهما في بيت خاله ..

ـ عظيم ..

قلتها من كل قلبي .. فقد كانت كل قصة تعدل عندي ، عمرا جديدا ، وحقيقيا ، لا غنى عنه ، وأخذت منه القصتين ، ولم اعره أي اهتمام ، حين طلب مني أن ابقي لديه واحدة ليقرأها .. فقد كنت مذهولا بفرحتي .. ان ابدأ القصة الاولى ، وأنا ادرك ، حين توشك أن تنتهي ، ان هناك قصة أخرى تنتظرني .. وأنني لن اعاني فداحة الوحشة حين لا يعود عندي ثمة ما اقرأه ..



لكن وآاســفاه ..

ما من سعادة يمكن الاحتفاظ بها .. أنها هذه السعادة كالزمن ، تتسرب من وجودنا ، وتغادره ، وتغادرنــا ، مخلفة فينا ، ذلكم الاحســاس الظــالم بالخواء ، ثم تحرضنا ، بسبب ذلك الطغيان ، الى البحث من جديد .

كتابا بعــد كتاب ..
وساعة بعد أخرى ..

ما كنت اتريث ، حتى لا تذوق فرحي .. بــل ذاك النهم الحيــواني ، المخرب ، الذي يسلب الحواس قدرتها ، فاذا القصة قد شارفت على الســطر الاخير ، والكلمة الاخيرة ..

نقص في الخبرة ؟.. ربما ..
ســوء في التربية .. ولم لا ؟
غبــاء ..

ان السعادة ، هي مقاومة الاحساس بالزمن ، والضد من حركته .. والا فما الذي كان يضير سعادتي ، لو أنني مثلا ، كنت من الفطنة ، بحيث أقرأ ، من هذه القصص التي اولعت بها ، كل يــوم ، عشر صفحات .. لكي يطول الفرح عشرة أيام ، بدل أن يختصر في يومين ..

وماذا في يومين مليئين بالفرح ، وبلا قدر كــاف مــن التأني ، غير تلك اللجاجة ، والشراهة ، ونقص القدرة على الهضم .. والاستيعاب ، والعيش في مركز الزمان ، بحاسة واحدة ..

وماذا عن سعادة يخالطها الخوف مــن أن تنتهي ، ومــن فرح ملتبس بالتعب واللاطمأنينة ..

أول ما كانت توجعني ، رقبتي ، لفرط الانحناء .. وعيناي .. وكانــت توجعني لهفتي .. وفقدان القدرة على الاتــزان .. بحيث ، كنــت احيانا ،

استعجل الزمن ، والحياة ، فاروح اقلب الصفحات ، لاصل الى النهاية •• بالضبط ، كمن يختصر من عمره •• وعمر احساسه بوجوده ••

كنت اقرأ ، باخلاص ، واستغراق ، ومن حولي ، تتناهى الى سمعي ، الاصوات الصادرة عن عالم ، هربت منه •• صوت الباعة خارج البيت ، صوت باب الدار وهو يقرع ، صوت ضيف يدخل ويجري استقباله بدون حفاوة •• بل •• لقد كان يتداخل في فرحي ، صوت دمي وهو يجري في عروقي ، وقلبي•

وتصيح بي عمتي :

ــ قم •• واذهب الى السوق ، واشتر لنا كذا وكذا ••

واعرف انها تخترع ذلك ، لاقوم عن مكان سعادتي ، لانها تعتقد أن القراءة ، بهذه الطريقة ، ستفسد عيني ••

ــ قم •• انهم ينادون عليك لدى الباب

واعرف ان هذا صوت امي •• ثم :

ــ قم تناول الطعام •• ان اباك في انتظارك ••

اصوات •• اصوات •• هي في مجملها فضول لا موجب له ، والتباس كان يمكنه تلافيه بقليل من تصنع الصمم ، والاستغراق ••

يا للبلادة ••

كانوا جميعا يبدون لي ، وأنا في غمرة سعادتي ، مغفلين ، ومخدوعين ، لانهم ، ما استطاعوا أن يدركوا أي فرح اعيشه من دونهم ، وهم مشغولون ، بالسخف والتفاهات ••

ثم يأتي الليل ، ومن مكاني ، وأنا مضطجع في سريري ، لانام ، اسمع صوت ذاك «الامير» ، عمي ، وهو يمتدح اقبالي على المطالعة •• فأطرب ، وأروح أتساءل في سري ، عن أي من الرجلين ، احبه اكثر وأريد أن اكونه ؟•• عمي أم « أرسين لوبين » ؟•• الامير •• أم القديس ؟•• ولماذا لا يمكن أن



الونهما معا .. كيف يمكن ذلك ؟.. وأروح أغمض عيني ، باحثا عن الجواب في تلك الظلمة الدافئة تحت جفني .. وما من جواب ، سوى احساسي بأن العالم ، متعب وجميل .. وفي أن ثمة امتحانا في الجغرافية ينتظرني صباح الغد ، وعليّ أن استذكر الحدود ، والانهار ، والتضاريس ، والعواصم ..

ثم جاء يوم ، اقفر العالم فيه من جديد .. كنت اواصل البحث عن قديسي فلا اعثر عليه .. حتى ولو على مجرد نصف كتاب .

أهذا معقول ؟

لست أذكر كيف خطر لي أن اقصد المكتبة العامة ؟ هل نصحني أحد بذلك ، أم أن حاجتي هي التي أخذتني .. بحيث استيقظت ذات صباح من أيام العطلة الصيفية ، وقلت لامي :

ـ أنا ذاهب الى المكتبة ..

ـ ايـن ؟

ـ الى المكتبة العامة ..

قالت ، غير مصدقة :

ـ وأين تقع هذه المكتبة ؟..

ـ قرب « باب الجسر » .. تلك البناية المجاورة للبلدية ..

وكعادتها ، حاولت أمي ، بسبب خوفها الابدي علي ، أن تثنيني عن عزمي .. وكعادتها ، شجعتني عمتي الحولاء ..

ـ لا عليك منه .. دعيه يذهب ..

وقد ذهبت ..

قطعت شارع نينوى ، ثم حين وصلت حديقة البلدية المطلة على الجسر . دخلت الممر .. وسألت عن المكتبة ، وأنا أداري ، خوفا ، وحرجا شديدين ، مستعينا بمجرد اعجابي بقديسي ، طالبا شفاعته ، من أجل أن يتخلى عني قلقي وترددي ..



صـالة كبيرة ..

هادئة .. وباردة .. تتوزع فيها مناضد كبيرة ، يتفرق عندها عدد مـن القراء ، منكبين على الكتب التي تحت ذقونهم . ولقد سرني ، أنني حين دخلت لم يرفع أحد مـن هؤلاء رأسـه ، وينظر الي .. لانهم لو فعلوا لزادني ذلك حرجا وارتباكا ..

وقفت حائرا .. يركبني بطريقة خرفاء ، ذلكم الاحساس الذي اعانيه ، كلما دخلت تجربة للمرة الاولى ، فانا محصـور ، بالخوف من الخطأ ، والقلق من ان أبدو مضحكا ، وساذجا ، بسبب نقص خبرتي ..

قرصتني ،وقالت ضاحكة :

ـ اهي المرة الاولى؟

ـ كلا ...

كذبت عليها ، واحتقرت نفسي ، بينما راحت حاجتي تذبل ، وندمت ، من كل قلبي على مجيئي . وقد كان ينبغي في تلك اللحظة ، ان اهـرب او ان اعترف ، بانني ، حقا ، لم ادخل مكانا كهذا قط ، رغم انني قد بلغت العشرين .. ولكن الاحساس بالذل ، يدفع احيانا الى طلب العون من المكابرة ، بحيث تتخذ الورطة ، شكل مهزلة حقيقية

ـ هيا اذن ...

قالتها وهي تمضغ « العلك » بين فكيها ، وتتجه الى السرير ...

واستجمعت كل اطراف شجاعتي .. كنت اجـرب لاول مـرة ، ذاك الاحساس الشنيع الناجم عن مكابرة طفولية ، تريد ان تصنع رجولة مزيفة ، من خلال شاربين ، مرسومين بقلم الفحم ...

ولقدرحمتنيتلكالمرأة ، بأن ، تغافلت عن فجاجتي ، وقبلت مني شاربي المزيفين ، باعتبارهما حقيقيين .. فلم أنس لها جميلها لسنوات طويلة .. بـل لعلي لن انسى لها هذا الجميل ما حييت ..

انقذني فراش عجوز .. بأن وضع يده على كتفي ، وسألني هامسا :

ـ مـاذا تريـد ؟

ـ كتـابا ..



قلتها بذلة ، لم يلحظها الرجل العجوز .. لانه كان منشغلا بأن يشرح لي ما يتوجب علي عمله .. اراني الاستمارة التي يجب أن ادون عليها اسمي واسم الكتاب الذي اريده ، ورقمه .. ثم ساقني الى قوائم معلقة على الجدار وتركني هناك ، وانسحب الى مكانه عند مدخل القاعة .

هدأ روعي .. فاستعدت مباشرة حاجتي الى قديسي بحيث استطعت أن اتبين بقليل من الجهد ، القوائم التي تحمل عنوانا كبيرا « القصص والروايات » .. وطربت مباشرة . لان هذه القوائم ، كانت اكبر من القوائم الاخرى ، ورحت افتش ، بهدوء ، واثقا أنني ساقع على ضالتي ..

وقد وقعت ..

وقد ناداني الاسم مباشرة ، كما يناديني اسمي حين يخلط بين ملايين الاسماء .. « موريس لبلان » ..

يا للراحة ..

عشرة كتب أو اكثر .. والمؤلف ازاء كل عنوان هو نفسه الذي حفظته عن ظهر قلب .. والعناوين .. واخترت : « أهل الكهف » ورحت املأ استمارتي .. ولم تمض بضع دقائق ، حتى كنت قد تسلمت الكتاب الذي اريده .. وأنا اسعد ما يكون .

منذ تلك الساعة ، ابتدأ زمن مشدود .. لا يشبهه زمن قراءتي في البيت .. فهنا في هذه القاعة .. ينبغي أن آخذ الكتاب واختار لي مقعدا ، وارجع اقرأ بهدوء..غير مسموح لي أن اتحدث أو أن استلقي..أو أن اجوع .

بل .. هنا في هذا المكان الظليل .. غير مسموح لي ان آخذ الكتاب معي .. اذ سرعان ما ينتهي وقت القراءة ، ويتوجب على الجميع ان يعيدوا تسليم الكتب التي استعاروها .. حتى وان لم يكونوا قد أنهوا قراءتها .. واذا شاءوا ، فليعودوا غدا .. ويكملوا قراءة الكتاب الذي يريدون ..



وكان علي ان اتعلم الصبر .. واحتمال الشوق ، لمعرفة ما سيكون من أمر «قديسي» ، بعد أن تركته في زنزانة حديدية ، مسجونا في مدينة غريبة مبنية تحت الارض ..

واقضي ليلة مفعمة .. من انتظار جميل .. وأحلام متوترة .. واستيقظ مبكرا .. واسلك الطريق ، مع فرح غريب .. يظل يمشي معي الى « مكتبة غازي » .. ويستقبلني الفراش العجوز باسما .. وآخذ استمارتي .. وأتسلم كتابي من جديد ..

شهر أو اكثر ..

حتى قاربت العطلة الصيفية أن تنتهي .. فلم يبق على استئناف الدوام ، سوى اسبوعين .. كنت خلال ذلك ، قد قرأت كل كتب «القديس» الموجودة في « مكتبة غازي » ..

ولن أنسى ذاك الصباح الذي استيقظت فيه ، وأنا حائر لا اعرف ماذا افعل ..

هل أذهب الى المكتبة ؟..

علام ؟ وما الذي سأقرأه هناك .. بعد أن انهيت أمس الكتاب الاخير من كتب « موريس لبلان » ؟

هل اعيد استعارة الكتب نفسها ، فأقرأها من جديد ؟..

وماذا أفعل ، ان أنا لم اذهب الى المكتبة ، بعد ان ملأ لي الذهاب اليها أيامي باجمل وأغنى الساعات ..

وجدت قدمي تحملانني في الطريق نفسه ..

كنت احس ضياعا ، وفراغا مؤلما .. وكانت الدنيا من حولي تبدو خاملة .. وبليدة ..



ورأيتني اقف عند قوائم الكتب من جديد •• وفي روحي حدس انني ، لابد قد غفلت عن كتاب ما من كتب القديس •• أو لعل الذي دون العناوين أخطأ في كتابة اسم المؤلف •• فوضع اسما آخر ، بدل اسم «موريس لبلان» •

الا يحتمل ان يحدث هذا ؟ بلى ••

ورحت اتفحص العناوين •• كان بينها عناوين تصلح تماما لمخيلتي •• عناوين كثيرة •• توقفت عند أحدها : « بين نارين •• »

لماذا دونته في الاستمارة •• وكيف وقفت انتظر ؟•• وأي مشـــاعر من أمل كانت تنبض في روحي ؟••

عاد المأمور من مخزن الكتب ، ووضع امامي كتابا ، ما ان رأيته ، حتى أدركــت خيبة أملي ••

فالكتاب ضخم •• وكبير •• لا يشــبه تلك الكتب التي جربتها مــن طبعات « روايات الجيب » ••

كدت اعتذر من مأمور المكتبة •• لولا خجلي •• وبيأس أخذت الكتاب مستسلما ، وانسحبت الى زاوية ، قائلا لنفسي : انها نصف ساعة ، حســب ، اتريث فيها ، من أجل الا أبدو أخرق •• ثم اعيد الكتاب ، وانتهي ••

قلبت بعض الصفحات ، وانتبهت الى ان قارئا ، قد كتب على حواشــي عدد من الصفحات تعليقات ، اثارت انتباهي ، فرحت اتابعها بفضول ، متسائلا ان كان مسموحا ، لقارىء مثلي ان يكتب هو أيضا تعليقاته ••

أعجبتني الحواشي التي وضعها القارىء المجهول ، فقد كانت تنطوي على روح فكهة ، ومزاج مرح •• ووجدتني أنصرف الى قراءة بعض المقاطع مــن الكتاب لاتبين موضع هذه التعقليات •• فاستغرقني ذلك رويدا ، ولم تمض بضع دقائق ، حتى كنت قد وطنت نفسي على ان أجرب قراءة الكتاب من أوله •



كانت رواية خفيفة الظل ، رشيقة الاسلوب •• سـرعان ما انغمرت في اجوائها •• بل لقد وجدتني بعد مضي ساعة من القراءة لا أكاد اتمالك نفسي من الرغبة في الضحك لفرط ما تنطوي عليه احداث الرواية من مواقف فكهة•• بل لقد انخرطت فجأة في الضحك •• ولفت انتباه الاخرين •• فتطلعوا الـي مبتسـمين بتعاطف ••

خرجت تلك الظهيرة من المكتبة ، وأنا انطوي على قناعات جديدة ، لـن تلبث ان تترسخ في روحي ••

ان الكتب عالم يشبه العالم الذي نعيش فيه •• عالم حاشد باصدقاء ، قد يبهرك بعضهم ، او يضحكك •• أو يبكيك أو يثير في نفسك الملل •• وأنت الذي يعجبك كل ذلك ، غير مخير في أن تطلب المزيد ••



الفصل الثالث

الحمى



في المسافة التي بين « مدرسة شمعون الصفا الابتدائية للبنين » و « المتوسطة الشرقية » كنت أعي ، بنوع من القلق ، لذيذ وغريب ، أن روحي غدت ملتبسة بجسدي ، وكنت ، منهمكا بتذوق الطعم الناجم عن هذا الالتباس ، والشذوذ الذي يصدر عنه •

واول ذاك الشذوذ ، أنني ما عدت استطيع أن استريح •• بل أنا يقظ يقظة متعبة ، ومتفتح ، ومرهف ، ارهافا صعبا ، لآلاف الابواب التي وجدتها تتفتح حولي •• فأنا حائر ، الى ايها انتبه ، والى أي منها أتجه ••

ليس هذا حسب •• فأنا في ذاك الخريف ، كنت ، اراقب نضجي •• منتبينا بانبهار ، الانين الصادر عن روح ، اوقظت بحده وجسد مجبر على ان يصير جسدي انا وحدي •• بحيث كنت استطيع أن اسمع عظامي وهي تنمو داخل لحمي وتعيد صياغته ، وصياغتي ، لاستوعب نفسي •• واذ كان ذاك مؤلما فقد كان لذيذا أيضا •• ولكن •• لا راحة ••

ان الطريق الى المدرسة مبهم •• والمدرسة مبهمة •• والاسماء •• والصفوف •• والدروس •• والمعلمون •• وأنا •• لا راحة •• لا ألفة ••

وأنت امام باب المدرسة غريب ، ومهمل ، رغم مراهقة عمرك المبكرة ••

وأنت أمام المدير أغرب ، رغم رسالة «التوصية» التي أخذتها اليه ، بل ربما ، بسببها ••

وأنت بعد كل ذلك ، في صف ، قيل انه كان اسطبلا •• سقفه واطىء ورائحته قديمة •• وبين تلاميذ كلهم غرباء ، ما ان دخلت حتى نظروا اليك بريبة فأحسست لفرط توجسك أنهم يتغامزون عليك •• فجلست حيث اشار



اليك المدرس ، وجسدك متعب ، من الاحساس بوقع تلك العيون الفضولية التي تحيط بك ..

لا راحة ..

والمدرسة كبيرة .. والجوار غريب ..

وجرس المدرسة مجرد قطعة من حديد ، معلقة لدى الباب بسلسلة ، وهم يقرعون عليها ، فتصدر ضجيجا كريها .. تتبعه قهقهات ما يزيد على خمسمئة مراهق .. ثم لا يلبث أن يسود الصمت .. ويأتي المدرسون .. ويظل الخريف في الساحة وحيدا حتى موعد الجرس القادم .. وتظل أنت تجهد من أجل ان تصفو في روحك ، رغوة غربتك .. على الاقل ، من أجل أن تفهم ما يقوله المدرس ، فلا تبدو أبله حين يفاجئك سؤال ، ويضحك منك اولئك الغرباء ، الذين تصدر عن اقدامهم وملابسهم روائح كريهة لفرط الفقر والخبث ..

لا راحة ..

يكفي أنك ما تزال تريد أن تتماسك .. في انتظار الساعة التي يتاح لك فيها ، أن تبرهن ، لكل هؤلاء الغرباء ، انك لست أقل منهم ، خبثا ولا أضيق حيلة .. وأنك حين يقتضي الامر ، تستطيع ان تكون وقحا .. وسليطا .. « وقليل الادب » ..

تماسك ..

ماذا يضير أن يكون وجهك ممتلئا بحب الشباب ؟.. بل لماذا لا يصير ذلك امتيازك ودليل فتوتك .. وهذا الولد الذي في الصف الثالث المتوسط ، يحمل وجها فيه من حب الشباب ، ما يكفي لثلاثة اولاد .. ومع هذا فهو أحسن «لاعوب» بكرة السلة .. وملاكم ، يحسب له حسابه .. يمشي بين الطلبة مختالا بعضلاته المفتولة ، وانفه الذي صار أفطس من الملاكمة ..



ماذا يضيرك ، في هذه المدرسة ، حب الشباب ؟

ماذا يضيرك ، أن يكون أنفك كبيرا ؟••

ماذا تضيرك غرابة هذا الخريف ؟•• وانت في كل فرصة ، تستطيع أن تذهب الى تلك الغرفة التي على اليسار •• وتتطلع عبر زجاجة النافذة ، وترى الى ما في «المرسم» من لوحات معلقة على الجدران •• وتتطلع بانبهار الى تلك الحوامل الخشبية الفارغة •• واللوازم العجيبة ، وكانك ، تتطلع الى غرفة سرية ، تكمن فيها طقوس ، تستدعيك •• فتلبي •• لولا أن باب « المرسم » ظل مغلقا •• وسيظل الى حين ••

جاء مدرس الرسم الى الصف •• وخيب لك ظنك مظهره •• فما كان يبدو ، كما اراده خيالك : نحيفا •• طويل القامة •• واسع العينين •• غريب الملامح •• بل هو رجل في الاربعين ، قصير القامة •• أصلع •• شديد الهدوء •• كثير الصرامة •• جاء ووضع على المنضدة أمامنا ، صندوقا خشبيا•• وقال أرسموه •• فامتلأ قلبي ضيقا •

في الدرس التالي ، ازددت ضيقا •• وقلت لنفسي : ما هذا مدرس رسم •• انه يصلح لان يكون بائع اقمشة في دكان « بالسرجخانه » •• أو مدرسا ــ في أحسن الاحوال ــ للحساب •• أما الرسم •• ورحت انتبه اليه بضيق شديد ••

كان يتحدث عن موضوع اسمه «المنظور» •• وكان اذ يتحدث يرسم على السبورة خطوطا هندسية ••

ــ لاحظوا •• هذا الخط يسمى مستوى النظر •• وما تقع عليه اعيننا ، إما ان يكون على مستوى النظر •• أو فوق مستوى النظر •• أو تحت مستوى النظر •• اكتبوا هذا وأرسموه في دفاتركم ••



تأفف التلاميذ .. ولكنهم كتموا تأففهم .. واراد بعضـــهم ان يمزح ، فاصطدم المزاح بحزم المدرس .. في حين انسحب الشغف الذي كنت اعانيه ، الى قرارة مخيلتي .. ورحت اكتب باهتمال ما املاه علينا المدرس وانسخ من السبورة الخطوط اليابسة التي رسمها .. في انتظار ان اكتشف علاقة هـــذه الخطوط بالرسم الذي كنت احبه من كل قلبي .

تطلع « جواد سليم » الى اللوحة التي كان يرسمها احد الزملاء في مرسم دار المعلمين العالية .. كانت تمثل منظرا طبيعيا لجانب من ضواحي بغداد .. فيه عدد من البيوت والاكواخ ..

قال جواد بهدوء : « المنظور خطأ ... »

وحين قال ذلك وراح يشرح وجه الخطأ ، نبعت في روحي صورة مدرس الرسم في المتوسط قبل ست سنوات ... وامتلأت حنانا وعرفانا ، لذلك الذي جهد في ان يضعنا وفق (منظوره) على الطريق الصحيح ...

ثم جاء درس الانشاء ، وكتب المدرس على السبورة بيتا من الشـــعر : « وطني لو شغلت بالخلد عنه .. نازعتني اليه في الخلد نفسي » وقال اجعل من هذا البيت موضوعا لانشائك .

فتحت دفتري ، وأمسكت بالقلم ، وفي اعماقي تتصاعد لاول مرة حمى غريبة ، هي أقرب ما تكون للحنان ، كان صوت ام مجهولة يناغيني ، أو كأن دموعا باردة ووهمية توشك ، ان تطفر من عيني ..

كنت ادرك ، بثقة تامة ، أنني لسبب ما ، لا أعرفه وقد لا اعرفه طـــوال حياتي ، غدوت مؤهلا لان اكتب ، أو أقول ، اشياء صـــادقة ، وضـــرورية ، وجميلة .. وأنني بسبب ذلك ، ســـاكون جميلا ومحبوبا ومفهوما .. وعلى غير وعي مني ، سمعت صوت «هوراس» الابن يناجي وطنـــه في مســـرحية «هوراس» التي شغفت بها ، وحفظتها عن ظهر قلب حين مثلت على مســـرح مدرسة « شمعون الصفا » قبل بضعة شهور .. وبوحي من حماسة البطـــل لوطنه ، وصدق رغبته في ان يموت من اجـــل الوطن ، كتبت جملا حـــارة ،



مستعيرا نبرات ذاك «الامير» الـذي كنت معجبا بمواعظه •• ورويدا رويدا وجدت الحمى تفارقني واذا بي أنهي كتابة الانشاء وأعطيه للمدرس ••

ومرت أيـام

حتى كان الاسبوع التالي •• أو ربما الاسبوع الذي يليه ••

اذكر انه كان يوم أحد •• وأنني كنت قـد بكرت صـباح ذاك اليوم فدهبت الى الكنيسة ، وصليت من كل قلبي ، نادما على الخطايا التي ارتكبتها سحابة اسبوع كامل •• ثم اسرعت الى المدرسة ، وأنا احس خفه ونظافة ، بعد ان غسلني «الاعتراف» ، وجددتني صلاتي ••

في الدرس الثاني ، جاء مدرس اللغة العربية يحمل دفاتر الانشاء •• كان اسمه (محمد مصطفى) • ولقد ميزته منذ الدروس الاولى للطريقة التي يشرح بها قواعد النحو •• ولنبرته الفكهة البسيطة ، حين يتحدث ، ثم زاد احتراما في نفسي ، حين عرفت انه يحمل شهادتين وأنه كان يشغل منصبا هاما ، تنازل عنه ، بسبب تحديه وجرأته •• حتى لقد اقترنت شـخصيته في ذهني بشـخصية « ارسين لوبين » ••• قلت لنفسي : لو كان ممكنا ان يكون ثمة « ارسـين لوبين » عراقي •• فمن المؤكد انه سيشبه (محمد مصطفى) مدرس اللغـة العربيـة الى حـد كبير ••

دخل المدرس الى الصف ، وما أن اتخذنا أماكننا ، حتى سمعته يسأل عني:

ـ من منكم فلان ؟

نهضت • وعاد يسألني :

ـ أنـت ؟••

ـ أجـل ••

قلتها مرتبكا • وسمعته يطلب مني أن أقف امام الصف وأقرأ الانشـاء الـذي كتبته ••

عادت الحمى من جديد ••



بدا لي لوهلة ، أن دوارا عذبا يحملني ، فانا خفيف ، بحيث لا أملك السيطرة على جسدي وسمعت صوتي ، كما لم اسمعه من قبل ، وأطربتني نبرتي ، واعجبتني كلماتي ..

انتهيت من القراءة فساد صمت عذب . قطعه المدرس حين قال :

ــ رائع ..

قالها ببساطة ودون اي قدر من رغبة في الامتداح أو الحماسة .. فبدا لي ذلك غريبا ، وحبيبا ، وعرفت ان المدرس صادق فانتشيت مرتين .. مرة لان (محمد مصطفى) بالذات اعجبه انشائي ، وأخرى لانني استطعت انجاز شيء معجب ، ما كنت احسبني مؤهلا لانجازه ..

وسألني المدرس ، قبل أن اعود الى مكاني :

ــ هل في عائلتكم اديب .. أو شاعر ..؟

فقلت له عن عمي .. وعند ذاك قال :

ــ لا غرابة اذن .. فانت من بيت علم ..

زدت انتشاء . وأطرقت ، ما كنت اريد ان تلتقي عيناي بعيون الطلاب.. لكي اظل منطويا على احاسيسي ولأتحاشى ، ما قد تنطوي عليه عيونهم الشيطانية ، من تعاطف او حسد .. أو خبث صبياني ..

لم يلبث المدرس أن راح يتصفح دفاتر الطلبة ، ويعلق على ما يراه فيها .. وأنا أرنو اليه بعرفان ومحبة .. حتى انتهى الدرس .

هل انتهى درس الانشاء ذاك ؟ متى ينتهي ؟

لقد لمس (محمد مصطفى) من روحي وانا حينذاك ، لم أكد اتجاوز الثانية عشرة من عمري موضعا .. او لعله القى بذرة .. لن تلبث ان تنمو ، فتستغرقني فأنا امام نفسي ، بطريقة ما ، منذور لتلك النشوة التي تذوقتها والحمى التي عانيتها .. وسأظل أعانيها طول عمري ــ حمى الكتابة !..



أخذ مدرس العربية دفتري وطاف به على الصفوف الاخرى •• وزاد ، فقرأ « الانشاء » في غرفة المدرسين •• بحيث لم يكد ينتهي دوام ذاك اليوم ، الا وقد غدوت طالبا مشهورا •• يأتي المدرسون الى الصف ويسألون عني ويمتدحونني •• ويلتقيني هذا الطالب او ذاك ، فينظر الى أحدهم باسما ، او ساخرا •• او غاضبا •• وأنا لا أملك ، الا ان اطرق لائذا بما سيكون منذ الان فصاعدا •• تواضعي ••

ظهيرة ذاك اليوم ، عدت الى البيت احمل معي احساسا بالسعادة ، لم اجربه من قبل •• فهو فرح يستخفني ، اين منه افراحي السابقة •• يوم نجحت مثلا في امتحان الصف السادس •• او يوم الاحتفال بتناولي الاول •• او اعياد ميلادي ؟•

ابدا •• كان فرحا جديدا فيه من العمق والسطوة ، ما يوحي لي ، وكأنني انا الذي صنعته لنفسي •• فهو جدير بي •• وأنا استحقه لانه نجم عني ••

والله ، من حاجتي التي اشتدت حين وصلت الى البيت ــ أن أجد شاهدا على فرحي هذا ، يقتنع به ، ويتذوقه مثلي ••

حكيت لعمتي الحولاء فما همها من كل ما حكيته ، سوى ان المدرس عرف عمي ، وامتدحه ، ووصف بيتنا بانه « بيت علم » •• وحكيت لامي ، فاكتفت بان نظرت الي بحنان ، ودقت على الخشب •• اما ابي وعمي فقد سمعا الحكاية بهدوء وأخفيا ابتسامة رضا ، في وقار جلستهما المسائية الصامتة•

ولم يكفني ذلك •• فلذت باللجاجة •• اعيد الحكاية وأباهي بها ، حتى ضاقت بي اختي ، فقالت لي :

ــ صبرا •• حتى يحين موعد الانشاء القادم •• وسنرى ••

لم اتبين موضوع التحدي في كلامها للوهلة الاولى •• ولعلها ما كانت تقصد ان تثبط همتي او تتحداني ، بقدر ما كانت تريد أن تعبر عن ضيقها بلجاجتي •• فأكف عن مباهاتي التي تجاوزت حدودها ••



ولكن افتراضها ، لم يلبث ان نضج في ذهني •• وصار اسـئلة معذبة : ماذا لو انني فشلت حقا في كتابة انشاء آخر ، من نوع هذا الذي اعجب مدرس اللغة العربية ؟•• ماذا لو كتبت شيئا لا يعجبه •• فجاء الى الصف ، وقـال الطلاب انه كان مخدوعا بي •• وأنني لست اكثر من مدع •• ومحتال ••

يا للعـار ••

من معيني في قلقي هذا ؟• وأنا اعرف جيدا أنني حين كتبت في الانشاء الاول ما كتبته ، لم اكن اقصد ان اكتب شيئا جميلا •• ولم اكن اعرف ، حتى وأنا اكتب انني اكتب انشاء جميلا ••

وكيف لي ان اميز بين كتابة جميلة اكتبها ، **وأخرى غير جميلة ؟ لـذت** بالصلاة •• كما في كل مرة اجدني فيها ملقى في قرارة خوفي •• صليت بخشوع انسان محتاج •• ومحاصر •• وضعيف •• لا ملجأ له سوى الله وقديسيه •• ودعوت الى « مريم العذراء » الا تسمح بخذلاني •• ونذرت ان اشعل شمعة امام ايقونة (ام العجائب) •• ورحـت اردد تلك الصـلاة التي تعلمتها من امي •• صلاة المحتاجين والمنسحقين بحاجاتهم :

« اذكري ايتها الام الرؤوم •••
انـه لم يسمع قط •••
ان احدا التجأ الى حمايتك ،
وطلب شفاعتك فخاب ••
بهذه الثقـة ،
قصدتك ، يا عذراء العذارى ــ امي ••
متضرعا بين يديـك •••
ونادما على ما جرى مني ،
من الخطايا والذنوب •••
فيا ام الكلمة الطيبة ••
لا ترذلي طلباتي ••
بل استمعي لي برافة ••
واستجيبي لي •• امين »



كنت اردد هذه الصلاة ، وأعي كلماتها ومعانيها ، وعيا يتصل بحاجتي حتى لكأنها مصاغة وفقها •• وما كان يمكن ، في تلكم الايام ان ادرك ، ان هذه الصلوات بنبرتها ، ومفرداتها ، وصياغاتها ، مسؤولة ، وستبقى الى زمن مسؤولة عن ، تلك الحمى الغريبة التي انتابتني لدى كتابة انشائي ، وعن المفردات التي استطاع ذهني ان ينضحها تحت سطوة الحمى التي رفعت حرارته ••

ولم استطع ان انتبه الا بعد سنوات •• ان ثمة علاقة بين اللغة والحمى•• فالحمى تستدر لغتي استدرارها للعرق •• واللغة تسبب لي الحمى •• فاذا أنا في مصاف عاطفي •• حنون وحزين ••

الحزن •• والحنان ••

هل كان ممكنا بدونهما ، في تلك الايام ، ان اكتب الانشاء •• وأن يعجب انشائي مدرسي الذي اعطاني كل هذا القدر من الفرح الصعب ؟• فكيف بي ، وبه ، حين دخل الصف ، واعاد الينا دفاترنا ، وطلب منا ان نكتب في الموضوع التالي •• ثم خط على السبورة بحروف كبيرة : «الاخلاق » ••

أين الحزن •• واين الحنان ؟ وماذا عن صلاتي وخشوع قلبي ، وشمعة النذر عند قدميك يا أم العجائب ؟• من اعماق ضيقي ، تناهى صوت أمي ، وهي توصيني كعادتها ، كلما ذهبت الى امتحان ، ان اصلي تلك الصلاة الخاصة بالروح القدس : فرحت اتمتم في ذهني :

هلم يا روحا معين	واشرح صدور المؤمنين
واسكب عليهم أجمعين	شعاع نعمة مبين
أنت المعزي للكئيب	ونعمة الاب الرقيب
حب •• ونور •• ولهيب	وروح مسحة البنين

وحين انتهيت من صلاتي السـرية ، فتحت دفتري ، وامسـكت قلمي وانتظرت •• ما كان في ذهني ايما فكرة أتشبث بها ، ولا أي صوت مناسب يتصل بعاطفة (الاخلاق) ، استطيع التعويل عليه •• بل هي فوضى من اصوات متداخلة ، ومواعظ ، وامثال لم يلبث ان طغى فوقها صـوت معلم التربية في الصف السادس الابتدائي :

وانما الامم الاخـلاق ما بقيت　　　فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وعلى غير وعي ، وجدتني أكتب البيت الذي كنت قد حفظته قبل عـام دون ان استوعب معناه تماما ••

والا فما معنى : « وانما الامم الاخلاق ما بقيت »؟•• كيف يسـتقيم الفهم ، وأنا ما كنت ارى في (ما) التي في جملة (ما بقيت) الا اداة نفي ؟••

ما علينـا ••

كتبت البيت ، واضفت في السطر الذي يليه « صدق الشاعر » •• وهي جملة ، كان أبي قد لقنني ان استخدمها ، كلما وجدت امامي انشاء يعتمد على بيت شـعر ••

« صـدق الشاعر •• »

ولكن •• كيف ؟ الا يحتمل ان يكون الشاعر كاذبا ؟•• وماذا لو لـم افهم بيت الشعر •• اية ورطة ان اغامر عند ذاك فانسب اليه الصدق ؟••

بل كذب الشـاعر ••

لا •• ان الشعراء لا يكذبون !•• فلم يكن ثمة اصدق عندي آنذاك ، من بيت شعر ــ يا للغفلة ــ واكثر •• ما كان عندي ، ثمة ما هو اصدق مـن كلام مطبوع ••

« صدق الشاعر •• » وكان ينبغي ان انتظر سنوات لادرك ان هناك بين الشعراء من يعتقد ان « اعذب الشعر اكذبه » !



انهيت كتابة « الانشاء » ، بدون حمى •• ولا حزن •• ولا حـب •• ولا حنان •• وراجعته ، حذر أن اكون قد سهوت ، فاخطأت في النحو والاملاء وانتهت معاناتي بان اسلمت دفتري (محمد مصطفى) •• الذي تصفحه واشار لي الى خطأ املائي : فقد كتبت كلمة «فظيع» بالضـاد والصحيح ان تكتب بالظاء ، وخجلت لذلك خجلا شديدا •• ثم انتهى درس الانشاء •• وابتـدأ درس الحساب ••

خمسة في ستة •• ثلاثون ••

خمسـة في سبعة •• خمسة وثلاثون ••

خمسـة في ثماني ••

وعيون « صموئيل » معلم الحساب في الصف الخامس ملتصقة بجبيني ودفتره الاسود •• والصفر الظالم الذي ينتظرني •• والخوف •• واليأس •• وأبي •• «واسماعيل» الذي « نزل الى السوق فابتاع عشـرين قنطارا مـن الشعير » •• والكسور العشرية •• والكسور الاعتيادية •• والصلوات •• والرسوب •• وأوف يا ربي •!

ويسألني مدرس الحساب في الصف الاول المتوسط :

ــ هل فهمـت ؟

وارد عليه بذلة مكظومة :

ــ أجـل ••

وهو يدري أنني ما فهمت ، وانا أدري !• انما ما حيلتي •• وما حيلته ، وهو يريد حقا أن يكون برا بي ، كما كان والدي برا به ، حين علمه ، قبـل عشرات السنين•لولا ان الصف حاشد بالتلاميذ ، وأنا في الحساب بليد بلادة، لا يمكن علاجها الا بأن يتولى احد تعليمي المبادىء •• فانا اكاد ، حتى الان ، اتعثر حتى في « العمليات الاربع •• » لك الله يا صموئيل !••



ويدق الجرس ..

وفي فناء المدرسة اعلان مكتوب على السبورة يخاطب الطلبة الذين يتوسمون (ما معنى يتوسمون ؟) في انفسهم قدرة على الرسم ، ان يكتبوا اسماءهم لدى الطالب فلان بن فلان في الصف الثالث .. التوقيع لجنة المرسم.

كتبت اسمي ..

واستسلمت الى حلم ، رأيتني فيه ، آخذ قلما وورقة ، واتطلع الى الشخص الجالس قبالتي ، فارسم على الورقة عدة خطوط .. فاذا هي وجه ذاك الشخص ، يراه الاخرون فيعرفونه ، ويتطلعون الي ، كما يتطلعون الى ساحر .. ثم رأيتني مرة اخرى اخذ الوانا ، وارسم شرفة تطل على حديقة غناء .. فاذا الناظرون اليها يتوهمونها ، وكأنها شرفة حقيقية ..

كيف يمكن ذلك ؟ ومتى .. ومدرس الرسم ما زال يعلمنا « المنظور » وخط الافق ، ومستوى النظر ونقطة التلاشي .. والمنظور من زاوية .. ثم يملأ السبورة خطوطا ونقاطا وهمية ، من اجل رسم صندوق .. مجرد صندوق !.

وتضيق روحي .. وآخذ دفتر الرسم ، واجلس أمام عمتي الحولاء واحاول ان ارسمها .. تماما كما رأيت من قبل ، ذلك الساحر « صبيح نعامة » يفعل فيرسم الشيخ الذي زار عمي في مجلسه ..

ـ لا تتحركي

اتوسل بعمتي ..

ـ لماذا ؟..

ـ سارسمك

وتجفل الحولاء ..

ـ لا .. لا أريد ان ترسمني ..



ـ ولكن لمـاذا ؟
ـ لا أريـد ..

واذاك أنصرف ، يائسا ، الى رسم أمي .. فتصبر علي بضع دقائق حتى تضيق بي ، وتقول لي :
ـ قم .. وانصرف لدروسك ..

فتكسر بذاك مرآة احلامي .. واتمنى ان اصيح بهـا ، وبالناس ، أنني لا أحب دروسي .. ولا أريدها .. واذا كان لابـد من دروس ، فليكن درس الانشاء .. ودرس الرسم .. وليذهب الى الجحيم درس الحساب ، ومواضيع الحسم والتنزيل والسـبائك .. ولتحل اللعنة بدرس التاريخ ، وكـل تلك السلالات ، وتواريخ نشوئها ، واسماء منشئيها ..

ويـدق الجرس ..

ويدق ناقوس الكنيسـة ، واتطلع الى « الخوري ابراهيم » وهو راكع الى يميني ، واتفرس في ملامحـه وتنتابني قناعة ، أنني ، اذا جربـت ، فسانجح في رسـمه ..

ومثل لص ، ودون أي ورع ، او تردد ، اخرج ورقة من دفتري واروح ارسـم بالقلم ..

تلك عمامة الخوري .. وهذا جبينه .. وأنفه .. ولحيته .. و .. الله.

لا تسعني فرحتي .. فاخرج مثل مخبول من الكنيسة .. فانا بعد هذا النجاح محتاج من جديد الى شاهد ، لا يشهد فرحتي حسب ، بل يشهد على جدارتي .. فهذه الخطوط التي على الورقة هي وجه « خوري ابراهيم » ومن ينكر ذلك فهو أعمى .. وابن عميان ..

والتقي في فناء الكنيسة ولدا من اصدقائي .. وأسأله بلهفة وأنا أريـه الورقـة :



ـ انظر •• من هذا ؟

يحدق الولد وهلة •• ثم يهتف :

ـ خوري ابراهيم ••

ويمتلىء قلبي فرحا •• فلا أكاد اصدق وأسأله ثانية :

ـ انظر جيـدا ••

فيرد عليّ :

ـ اليس خوري ابراهيم ؟ • من اذن ؟

ومن بعيد أرى « مجيد الساعور » فاهرع اليه يتبعني صاحبي ••

ـ انظر ايها العم مجيد •• من هذا ؟

ـ مـن ؟

ويحدق ببصره الكليل ••

ـ البس نظارتيك ايها العم مجيد •• واحزر ••

يرتدي « العم مجيد » نظارتيه القديمتين ويحدق •• وسرعان ما تسبقه ضـحكته :

ـ خوري ابراهيم ••

ويأخذ الورقة •• ويسأل :

ـ من رسـم الصورة ؟••

ـ أنـا ••

ويضحك العم مجيد ، ويردد :

ـ تمام •• الخوري ابراهيم بنفسه •• لا راح •• ولا جاء •• عافاك !•

كان فرحي بصورة الخوري اضعاف فرحي بالانشاء •• فاذا انا شـبه مخبول •• اتشبث بكل الذين التقيهم كبارا ، وصغارا وأشهدهم •• وكم كان الضيق يعصف بي ، حين يقول لي أحدهم •• انه لا يشبه الخوري ••



« ليس أنف الخوري ابراهيم هكذا •• » أو « ولكن اين عيناه ••؟ »
او « هذه العمامة غلط •• »

في المساء شهد لي عمي •• وشهد أبي ومن جديد رأيت على عيونهما تلك البسمة المخفية بوقار •• واسمع صوت أمي ::

ـ سيلهيه هذا الهوس عن دروسه ••

صدقت يا أم يوسف ولكن الى حين ••

ان كياني كله يلهيني عن دروسي •• روحي تلهيني •• وجسدي •• وهذا العالم الذي يفتح ، كل يوم ، من حولي ، أبوابا جديدة •• فألهث •• ولا استطيع ان استريح ••

يا شجر القداح •••
لا تزهر هذا اليوم •••
دع لحبيبي ،
ان يرتاح من الحب ، قليلا •••
ويذوق النوم •••

وأنام •• وفي نومي أرى من حولي كنائس واديرة تميل علي بابراج نواقيسها •• ثم أرى جنائز تتقدم •• وصبايا يذرفن الدموع •• وما يلبث المنظر ان يتخذ شكل مسرح في فناء الميتم •• وأرى « صبيح نعامة » يرسم بفرشاة كبيرة ، دوائر متداخلة حمراء وسوداء •• ثم اسمع صوت معلم الحساب يسألني عن « القاسم المشترك الاعظم » وعن « النسبة الثابتة » •• واسمع صوت الطلبة يضحكون •• ومن بعيد يلوح لي مدرس اللغة العربية (محمد مصطفى) يتحدث الى مدرس الرسم ويشير الي •• فاخجل •• واروح أجهد لاخفي حب الشباب الذي يملأ وجهي •• وأحجب انفي الذي احتقن بسبب الخجل •• وأذ أفعل ذلك ينتابني احساس غريب ومحرم •• حتى لكأنني موشك أن أتبول على نفسي •• وأقاوم •• ومعلم الحساب يراقبني•• وأقاوم •• والعرق يتصبب من جسمي •• ومن انفي يسيل مخاط لزج ••



فأخجل حتى لأتنسى أن أموت .. وأروح أصلي تلك الصلاة التي يجب ان أصليها قبل « التناول » :

« ربي .. والهي
أنت هو ذات القداسة ...
ولست مستحقا ان تأتي الي ...
انما قل كلمة فقط ..

وافيق ..

الغرفة مليئة .. والطبيب بارح قبل قليل .. لثلاثة أيام كنت محموما .. أهذي فاذكر اسم ارسين لوبين ، ومحمد مصطفى .. ومدرس الحساب .. والطبيب يقول لهم : « لا تخافوا .. هذا بسبب الحمى » . وامي تناشده : انه وحيدي .. فكيف لا أخاف ؟ :

كان عمره اذاك ست سنوات .. واصيب بالحصبة كما يصاب كل الاولاد .. ثم تحولت الحصبة الى ذات الرئة .. اصبح لا يستطيع ان يتنفس .. والطبيب يقول ((لا تخافي)) .. وذات يوم .. كنت وحدي .. وكان الوقت قبيل المغيب .. وفجأة ضاق نفسه .. فراح يصدر صوتا كالحشرجة .. صرخت ((ربي .. والهي .. ما العمل ؟)) وعند ذاك تذكرت ((أ م العجائب)) .. فحملته .. واسرعت به وهناك امام الايقونة وضعته وانا ابكي : ((اريده منك)) قلت لها .. ((انت تعرفين .. ما عندي سواه ...)) ثم جاء الساعور .. واعطاني ماء العجائب فسقيته منه .. ومسحت صدره وجبينه وعند ذاك فقط استرد انفاسه ..))

انقطعت عن المدرسة يومين .. ظل أهلي خلالهما حائرين للذي اصابني رغم تأكيد الطبيب ، انها مجرد حمى عارضة . لقد أرعبتهم الطريقة التي كنت اهذي بها .. والانفعال الذي كنت اعانيه .. والشحوب الذي خلفته الحمى في وجهي .. والذبول الذي اصابني .. فما وجدوا سبيلا للتعبير عن حيرتهم ورعبهم ، سوى ان يعتنوا بي .. ولقد كنت خلال ذلك استروح تلك العناية بحنان .. مدركا انني انما اودع من خلالها .. طفولتي ..



الفصل الرابع

التفاحة




مكتبة
الفكر الجديد

في الصف الثاني المتوسط ، رسبت .. كما ينبغي لفتى مثلي ، في تلك الايام ان يرسب ..

ما النجاح ؟ وما الرسوب ؟..

فجأة اكتشفت ، أنني في اعماقي ، غير معني بأي منهما ، وأنهما ، لا يساويان الجهد والعذاب ، اللذين يستلزمانهما ..

- فأنت لكي تنجح ، ينبغي ان تسكن يوميا ، على تلك الرحلة الخشبية ، وتفتح اذنيك وفكرك للغط ، يثيره رجل ما ، عن امر لا يعنيك او لا يغريك ، اولا يستثيرك .. وان تصبر على ذلك يوميا خمس ساعات كاملات .. فاذا عدت الى مستقرك ، حيث تناديك الحرية في البيت ، او الحارة ، او أي مكان آخر ، تألفه ، أو يهمك الركون اليه لاحقك (الواجب البيتي) ، وهاجس ان (تحضر) دروس اليوم التالي ، او الاسبوع القادم .. أو الاستعداد للامتحان.

امتحان يومي .. امتحان اسبوعي .. امتحان شهري .. امتحان فصلي امتحان نهائي ..

ليس هذا حسب فهذا الجدول من الامتحانات يتكرر بقدر عدد الدروس فاذا زمانك كله (امتحان) متصل .. وقلق يسبق الامتحان ، وآخر يعقبه .. بحيث يتداخل قلق بآخر ، ويتبادل معه طغيانه .. فلا يستقيم الحال الا بأن تعرف كيف تنظم هواجسك ، ومخاوفك ، وتتقنها ، بحيث لا تصاب بذاك الاعياء ، الذي يتركك ذات ساعة ، في وهدة من يأس خانق ، لا تعرف كيف تسكن النجاة منه .

ما كانت المدرسة ، قبل ذاك ، لتعني عندي ، كل هذا القدر من العذاب
كان (صموئيل) معلم الحساب •• هو عذاب المدرسة الابتدائية الوحيد ••
ولكن تعالوا انظروا ، ماذا حدث في (المتوسطة) ، واي عذاب ، كان ينبغي لمثلي
ان يعانيه ، وأنا في الشهور الاولى من الدوام في الصف الثاني المتوسط ••

وعلام كل ذلك ؟••

يقولون لك : من اجل النجاح •• فاذا كنت ولدا عاقلا ، وطموحا ، فأن
تنجح بتفوق •• فتكون الاول على صفك •• او الثاني •• ولم لا ؟ ليس فلان
احسن منك •• ولا ابن فلانة ••

ملعون ابو فلان •• وابن فلانه •• ما الذي يفعلانه ، وكيف يتدبران ،
ان يكونا ، على هذا القدر من البلادة ، بحيث يتحملان مرارة التحضير لكل
الدروس ، والاستعداد للنجاح فيها •• وللنجاح بامتياز فوق ذلك ؟••

كيف ؟ ولماذا ؟

ما الذي يغريهما ، بقبول كل هذا العذاب الذي يستلزمه النجاح
والامتياز ؟ اهو فرح ساعة او اقل تعلن فيها النتائج ويقال خلالها ، أن فلانا
نجح وكان الاول في صفه ؟

فرح ساعة واحدة •• ثم يأتي بعدها الخمول •• والحيرة •• وكان قد
سبقها عذاب عام كامل •• وسيعقبها عذاب سنوات قادمة ، ينبغي فيها لك ، ان
تنجح وان تكون الاول في صفك ؟••

لماذا ؟

لو كان عليك ان تمتحن حسب ، بدرس واحد •• او بدرسين •• لو
كان عليك ان تمتحن بدروس تحبها •• أو على الاقل •• بدروس لا تكرهها ،
او تحتقرها ، لو كان ذاك •• لهان الامر ••



ولكن دروس الثاني المتوسط ، ما استطاعت ان تثير فضـولي ، ولا ان تجتذبني ، بايما قدر من الاغراء .. فما كنت لاستطيع ان افهم جدواها ، ولا ان اتبين المتعة التي تنطوي عليها ، وقد اتخذ اكثرها شكل رموز ، وعلامات مجردة .. واختفي وراء اسماء ، لا خيال فيها ، ولا إثارة ..

الجبر .. الهندسة .. الكيمياء .. الاحياء .. الـ .. !

وهي كلها دروس جديدة ، لا صلة لها بما نعانيه ولا علاقة لها بمواهبنا ، نحن المحاطين بالاثارة والغموض من كل جانب ..

وكان يزيد من هذا العذاب ، ان هذه الدروس موكلة بمدرسين متعبين، او مهملين ، أو شديدي التعصب بحيث تختلط اخلاقها باخلاقهم ، ومزاجهـا بمزاجهم .. وقوامها بقوامهم ..

فلم يكن عجبا .. ان يتخذ مدرس الاحياء ، وهو يشـرح لنا الجهـاز التناسلي للضفدع ، شكل ضفدعة كبيرة صلعاء .. وان تبدو عيناه الواسعتان، اشبه بعيني الضفدع ، وان يتحول صوته الى نقيق ، ساعة كان يضـع كمـا تضع انثى الضفدع ـ بيضة في سرواله الكبير ..

وقد زاد من ضيق روحي ، ان مدرس اللغة العربية هذه السنة ، كـان رجلا في الاربعين ، يرتدي سدارة ، ويحتقر درس الانشاء ويحترم بدون سبب مفهوم ، او ربما بسبب السدارة التي يرتديها ، درس القواعد الذي يسـتعين عليه بكتاب اسمه « النحو الواضح » وهو نحو ، غامض ، وشديد الغموض .

كان اسمه « يعقوب الاخضر » ..

أجل الاخضر .. اليس ذلك غريبا ؟ لقد اطلق عليه الطلبة هذا اللقـب بدونما ، سبب واضح ، بل هي اسـتعارة ناجمة عن حدس شـعري .. فأن يكون مدرس العربية اخضـر .. فذاك يدلل ، على محنة ان يتحول اللون في غير مدلوله وان تحمل الصفة على غير موصوفها .. لان يعقوب كان اسود ..



وما كان فيه اية مسحة من خضرة •• وصبرا •• فغدا تتعرف على مدرس آخر اسمه « يونس الاحمر » •• اية غرابة !••

وسيدق الجرس •• فيدخل مدرس «الجبر» ••

مدرس اقرب ما يكون ، للوهلة الاولى ، الى الدعابة ••

كان سمينا •• وكانت بقعة من وجهه قد اصيبت بالبهق •• فهي تستفز الناظر اليها ، وتدفع الى روحه ، شيئا من التقزز والاحساس بالتنميل ••

في الوهلة التالية ، يصبح واضحا ، أن ليس ثمة من دعابة •• رغم ان مدرس الجبر ، سيفتح فمه ويتكلم بطريقة غريبة ، يصعد خلالها ، صوته ، ويهبط ، مترادفا مع صعود جذعه او هبوطه •• وتتنقل بيننا عيناه الصغيرتان ، أقرب ما تكونان شبها ، بعيني كائن ، فيه من التعب والتعصب ، ما يجعله مهيئا ، لان يكون قاسيا ولئيما ••

أبدا لا دعاية ••

انني لاصغي ، ولا أفهم شيئا •• وانظر فأرتبك •• وأضيق بعيني ، وهما تكتشفان ، ان ليس لمدرس الجبر رقبة •• بل هذا رأسه يتصل مباشرة بمنكبيه ولهذا فهو لا يستطيع ان يلتفت او يستدير برأسه ، ما لم يستعمل جذعه كاملا•

لا •• ما من دعابة ••

وينبغي بعد درس او درسين ، ان انتظر الكابوس ••

فمدرس الجبر هذا ، استطاع ان يدرك بمجرد ذكائه ، الذي لا رقبة له، وفطنته المصابة بالبهق ، وتعصبه السمين ، أنه لاسباب عديدة ، معرض في ايما لحظة ، لان يكون دعابة •• ولابد ان ذلك ارهبه ، الى حد ان خرج بقلبه عن ايما طيبة ، تليق برجل في مثل سنه ، وكان آنذاك قد قارب الخمسين •• وكان عليه ، ما دام الامر كذلك وما دام الطلبة مولعين بالمدرس الدعابة ، ان يحزم



امره ، ويستعين باكبر قدر من قوة ، يدافع بها عن نفسه •• وعن علم الجبر الذي يحبه حبه لزوجته واولاده ••

ولقد وفقه الله الى ذلك •• ولعله لم يوفقه ، الا بعد عذابات شديدة ، عاناها في مدارس وهمية ومن طلبة اشباح ، ضايقوه ، لاسباب ، غير معقولة ، ولا ذنب له فيها •• فاستطاع بوسائل عديدة ، مشروعة وغير مشروعة ، أن يصير ، بكل ما في جسمه ، وتضاريس وجهه ، اشاعة مجرد اشاعة •• تهمس في اذن كل طالب ، على حدة ، ثم في اذان الطلبة مجتمعين • خلاصتها ، أن مدرس الجبر اذا غضب على طالب ، فأن الرسوب سيكون مصيره ، لا محالة •• سيرسب في الامتحان اليومي ، والشهري ، والفصلي ، ثم في امتحان نصف السنة ، ونهاية السنة ، ويعيد •• وفي العام التالي يرسب من جديد •• ويظل يرسب حتى يموت ••

ربي ، والهي •• ان صموئيل معلم الحساب في الابتدائية أرحم •• وزمن الابتدائية كله ، كان اهون ••

في كل اسبوع اصبح متوجبا علينا ان نذهب للمختبر •• هناك ، في الطابق الاعلى ، الى اليسار ، حيث ، يتربع مدرس الكيمياء في مملكته ، تحيط به قنان زجاجية غريبة ، واجهزة مضحكة •• وتفوح من حوله روائح نفاذة تكتئب منها الروح •• نقرع الباب ، وندخل الى المختبر واحدا واحدا ••

والمدرس فوق كرسيه ، وقدماه على منضدة المختبر الكبيرة،تواجهان الطلبة بغطرسة ، وعيناه تتابعان التلاميذ واحدا واحدا ، منذ ان يقرع احدهم الباب ، حتى يستقر في مكانه ، وتوحيان اليه ، والى الجميع ، باحتقار مقصود •

بلى •• فلكل مدرس اسلوبه في بسط نفوذه على هولاء الطلبة المراهقين •• مدرس الجبر بالقسوة ، مدرس الكيمياء بالاحتقار •• وخلف القسوة والاحتقار ، تختفي عوامل ، ونوازع ، ما كان لنا ان نفهمها ، نحن المنفتحين توأ ، على عالم شديد السعة ، كثير الغرابة ، واسع التعقيد ••



لكننا كنا ندري ، بمجرد القدرة على قبول الاشاعات •• ان مدرس الكيمياء هذا بغطرسته وتلذذه بطعم الاحتقار ، لا يفهم من الكيمياء ، اكثر مما يفهمه منها ، طالب متوسط الاجتهاد او أقل •• وانه لولا اعتماده على نفوذ عائلته ، وسمعتها ، لما استحق اصلا ان يكون مدرسا ، وان يحتل المختبر ، وحده دون سواه من مدرسي الكيمياء ، الذين لا يتاح لهم استعمال المختبر ، الا مرة او مرتين طوال عام كامل •• واكثر من ذلك ••

فقد كان لمدرس الكيمياء ، رغم هذا كله ، وربما بسبب هذا كله ، مزاج خاص ، ميزه الطلبة ، وحدسوا دوافعه ، يتمثل بلجاجة يتخذها ازاء بعض الطلبة ينتقيهم ، فيحسن انتقاءهم ••

في كل درس ، ونحن ساكنون امامه ، باستسلام حيواني صرف ، تطوف عينا ، المدرس علينا ، وتنتقي واحدا ، ثم تستقر عليه ، بتلذذ واضح ، ويشير باحدى عينيه :

— تعال ••

وتقوم الضحية ، مسحوقة ، ومتعثرة ، بازواج من العيون الفضولية ، التي تبيت الريبة ، وسوء النية •• حتى تنتهي ، عند قدمي المدرس ، المختومتين ، بحذاءين كبيرين ••

ويسأل مدرس الكيمياء ضحيته ، ان كان قد استعد للدرس ، فهو صالح للاجابة على الاسئلة ••

— نعم ••

يقولها الطالب بارتباك •• في حين يتطلع اليه مدرس الكيمياء ، من تحت جفنين ثقيلين •• ويسأله :

— أواثق انت مما تقول ؟

يهز الولد رأسه •• فيسأله المدرس :



— فاذا سألتك ؟ هل تجيبني بدون خطأ ، ولا تردد ؟



ـ أجـل ..

ـ وماذا لو سـألتك .. وأخطأت ؟

والولد شاطر .. فمدرس الكيمياء يعـرف جيدا كيف ينتقي التلاميذ المجدين .. ولهذا يأتي الجواب :

ـ اسـأل ..

ـ واذا اخطـأت ؟..

ـ لن اخطىء ..

ـ ولكن افرض .. افرض انك اخطأت ..

يتململ الطالب ، من حرج ، وتكاد تضـعف ثقته بنفسه ، وقد يتفصـد جبينه عرقا .. انما لا فائدة .. فهو في مصيدة .. ولا مناص من أن يستفيد من رجولته في التحدي ..

ـ لن اخطىء ..

ـ فأن اخطأت ؟. ما الذي تراني صانعا بك عندئذ ؟

يجدر الصمت .. ان اسـئلة كهذه ، لا يصـح التفكير بالاجابة عليها ولا ضير في ان يغلق المرء فمه ، والا فأن ورطة يمكن ان تنتظره وتزيد من عذابه :

كانوا يضربونـه .. وهو لا يملك سوى الصراخ ، معلنا عن عذابـه ، مناشدا اياهم ان يرحموه .. وفجأة خطر لاحدهم ان يطلب منه ، طلبا غريبا ، قال لـه ، وهو يضربـه :

ـ غن ...

واذ لم يكن الطلب معقولا ، فان احدا لم يخطر له ان هذا الشاب المشدود من يديه وقدميه قد سمعه ..

ومرة اخرى هوت الضربة على راسه ، وجاء الصوت :

ـ اقول لك غن يا ابن الكلب .. ان لم تفعل فسأكسر لك رأسك ...

ولو كان الشاب ، فيحالة ، تصلح للتفكير والتزام جانب المعقول والمنطق لما ابه للطلب ، ولكنه في حالته هذه ، كان بحاجة ماسة للخلاص ، ولم يكن خلاصه الملح ،سوى ان يستريح ، من الهوان ، والالم ، والقلق ولهذا تورط ، فسأل من بين دموعه ، ومخاطه :



ـ ماذا اغني ؟ ...

ـ اقول لك غن ...

وضربه من جديد .. فجاءت الضربة على عينه هذه المرة ، وصرخ من كل قلبــه :

ـ حسنا .. سأغني ...

كان قد اتخذ قراره ، وهو في عمق احساسه بالغرابة والشذوذ ، واذ لم تسعفه ذاكرته ، فقد فتح فمه ، وترك للصدفة ان تنوب عنه ، بصوت مشجوج :

ـ انا .. والعذاب .. وهواك ...

ولقد ظل ، بعد ان انتهى عذابه ، يتساءل ، وهو يضحك ضحكة حيوانية ، من اين نبعت الاغنية هذه ، دون سواها ، في لا وعيه وكيف استطاعت ان تسيطر على حنجرته ، بكل ذاك القدر من التلذذ ...

ـ العذاب ؟ يا ابن الكذا ؟ ... العذاب ؟ ...

كان واضحا ، ان الطالب يتعذب ، وكنا نحن الذين تتفهم عذابه ، متلذذين بانا ، لسنا اكثر من متفرجين . واعاد المدرس السؤال :

ـ ها ؟ ماذا تراني ساصنعه بك ؟

ـ اصنع ما شـــئت ..

قالها ، بقوة ، ووضوح فبدا كأن مدرس الكيمياء ، لم يصـــدق اذنيه ، فقال كانما ليتأكد او يكسب الوقت :

ـ ما اشـــاء ... هـــا ؟

ـ أجل .. ما تشـــاء ..

وامتلأ وجه المدرس شراهة .. كانه وقع على الجواب الذي ظل ينتظره ، عدة قرون .. وادركنا سخطه لذلك ، وتلذذه في اختلاجة احــدى عضــلات عينيه وشفته .. بحيث خفنا جميعا ، ان ينفذ تهديده فيصنع بالولد ما يشاء.. ولكن مدرس الكيمياء بقي لثوان مرميا على كرسيه .. ثم بدت عليه علامات خوف واضحة واشار للولد ان يعود الى مكانه .

عذبني مدرس الجبر بالبهق والرموز مكعبة ومربعة ..



وفي احلامي ، كانت تفوح روائح احماض خانقة ، وتصدر ازيزا غريبا ، وكنت بين حين ، وآخر — افيق مرتعبا ، وانا تحت وطأة احساس ظالم بان في فراشي هيكلا عظيما لارنب ، ما يزال الشعر عالقا ببعض عظامه .. وكنت لفرط احساسي بالضيق ، احس انني مصاب باللعنة وان روحي متسخة ، بحيث لا يمكن قط ، ان استعيد صفائي ونظافتي ..

تخلى عني القديسون والكهنة وما عادت تجديني صلوات أمي ، ونصائح عمتي الحولاء .. ومللت ، الى حد القرف ، من ادمان الذهاب الى منبر الاعتراف ..

لا ملاذ ..

انني لاستدرج الى عالم لاذع بل ، انني لاندفع اليه ، بقوة جذب طاغية لا امل لي في مقاومتها .. لسبب بسيط ، وشديد الوضوح ، هو ان هذا العالم ، غير مفهوم ولا محدد ، وهو فوق هذا كله عالم شرس ولذيذ بحيث لا يبدو ممكنا ولا معقولا ، بذل أي جهد للتخلي عنه ..

وهكذا .. فلا ملاذ ..

ربما ، لو ان مدرس اللغة العربية ، ذاك الـ (يعقوب) الاخضر .. كان اكثر تفهما واقل خضرة ، بحيث ، اتيح له بقليل من الذكاء بذل عناية بتلميذ مثلي يحب الانشاء .. أو ربما لو ان مدرس الرسم ، كان اقل صرامة .. لكان الامر بالنسبة لي ، عند ذاك اخف وطأة ..

فقد كنت ادرك ان « الانشاء » على الطريقة التي استخدمه بها « محمد مصطفى » ذاك المدرس العجيب في الاول المتوسط ، كفيل بأن يجعلني اقل نزقا وتمردا .. وان الرسم يمكن لساعات ان يكون ملاذي .. ولكنني لفرط انتظاري اصبت باليأس .. فانكفأت على نفسي ارسم حالتي ، واتدرب عليها ، بقلم الفحم حينا ، او اقلام الشحم الملونة لانها ارخص سعرا .. فاذا اخذني



التعب ، وجدت على منضدتي الصغيرة ذاك الكتاب ، ذا الغلاف الاسـود ، والذي سقط منه عنوانه ــ واروح اغرق في عوالمه باستلام مهين •• فارسب وانجح في آن واحد ••

ما النجاح •• ما الرسوب ؟

انني لاتابع القراءة في « المجلد الاسـود » •• واتابع حكاية « مـريم الزنارية » مستروحا وقع عينين زرقاوين ، لانثى في الثامنة عشرة من عمرهـا تجلس ، او تكاد تستلقي غير بعيد عني •• تسألني بين حين وآخر ان لم اكن قد تعبت من القراءة ••

كان الوقت ظهرا •••

وكان جسدي اثقل مني،فهو مليء بالتوجس والتعب ••• وكان احساسي بنظرات (كاف) الانثوية ، وهي تتملاني ، بصمت ، يزيدني قلقا ، ثم في الوقت نفسه ،اصرارا على ان اظل منصرفا عنها • فقد كان اهتمامها بي لذيذا ، الى ابعد الحدود ، حتى انني، ما عدت افهم ما اقرأه •••

وفجأة مدت (كاف) يدها ، واختطفت مني الكتاب :

ــ ما هذا الذي تقرأه ؟

ثم راحت تقلب الصفحات وتطلعت الي بعينيها الزرقاوين ، وقالت بنبرة ذات جرس مبحوح:

ــ الف ليلة وليلة •• اما تستحي ؟

ازدهاني مباشرة ان تصفني (كاف) بانني (لا استحي) • واعجبني ان تكتشف سرا من اسراري • فاجبتها ••

ــ ولمـاذا استحي ؟ •• ليس في الكتاب ما يوجب الخجل ••• ضحكت واردفت بالنبرة نفسها :

ــ ياعيني •• ياعيني •• ويقولون عنك : ولد عاقل •• ويذهب الى الكنيسة••

لم استطع ان اخفي احساسا بالرضا ملأ قلبي •• وسمحت لابتسامتـي ان تنوب عني هكذا مجرد ابتسامة خطيرة تحاول ان تواجه الدهاء بمثله :

ــ اعيدي لي الكتاب •••

ــ لا •••

قالتها بمكر ، وتحد ، كأنها تستفزني ، لان اخذ الكتاب منها عنوة ولقـد هممت اللحظات ، ان افعل لولا انني خفت جسدي •••



ـ اعيديــه ...

اجابت ضاحكة :

ـ الف ليلة وليلة ... ياشيطان ؟ قل لي .. اية حكاية كنت تقرأ ؟

ـ مريم الزنارية .. اعيدي الكتاب ...

ـ ياعيني .. ياعيني « مريم الزنارية » .. حسنا .. احك لي القصة .. واعيد لك الكتاب ..

ـ انت تعرفينها ...

ـ لا .. والله ...

ـ فما ادراك اذن؟

ـ احكها لي ... فاتيك بكتب اجمل ...

ـ تكذبين ...

ـ والله ... وحق عيني ...

ـ ماذا احكي ؟

التمعت عيناها ، وسألتني :

ـ قل لي فقط .. ماذا كانت تفعله مريم حين تنتهي من نسيجها ؟

ـ تنام ...

ـ مع صديقهــا ؟

ضحكت (كاف) بدعارة ، واقتربت مني ...

ـ تنام معه ؟ لمــاذا ؟

ـ لست ادري ...

وقد كنت صادقا . ولكنني حملت نبرتي ، وانا اقول « لست ادري » معنى انني « ادري وأرفض ان اقول » . سألتني :

ـ هل صحيح انك لا تدري ؟

ابتسمت لها ابتسامة خطيرة ، ففرصتني ، واذ كنت يومذاك في الصــف الثاني المتوسط فقد رسبت كما ينبغي ، لولد مثلي ، ان يرسب ... ولم ابال ..

قالت امي : ذاك لانه انصرف الى الرسم واهمل دروسه ..

قالت اختي : بل .. لان دروس الصف الثاني صعبة .. ويستحيل ان ينجح بها طالب ما ، لمجرد نباهته ..

قال المدرس : ذاك انه كان يهرب مــن الدروس .. وفي الامتحان يعطي الورقــة بيضــاء ..



قال ابي •• قال عمي ••

واكتشف الجميع اسبابا مختلفة لرسوبي ، ولكن احـدا منهم لم يكـن يعرف ، ما فعلته بي (كاف) •• تلك الانثى الحقيقة التي كانت تكبرني بثماني سـنوات ••

كيف يمكن ان اقول تفاصيل عن (كاف) ، دون ان اتورط بالفضيحة ••

الا يكفي انني قلـت شـيئا عن عينيها الزرقاوين ، وابتسـامتها المليئة بالمجـون ؟•

لا •• لا يكفي •• ادري •• ولكنني غير مخير ••

(فكاف) الان ، لابد تجاوزت السـتين من العمر ، تعيش في بلد بعيد ، ولابد انها الان ، وهي تستعيد ذكرياتها ، تذكر ذاك الولد الذي قادتها نزواتها للتعويل عليه ، من أجل مسراتها الصغيرة ، وتشعر بكثير من الحنان ، وربمـا بقليل من الحياء العذب ٦••

هل حكيت لها تلك الظهيرة ، ما فعلته « مريم الزنازية » ، بعد ان انتهت من نسـيجها ؟••

هل حكـت لي ؟••

ماذا قلته ؟ ما الذي قالته ؟

لانني اذكر ، أن عيني (كاف) كانتا حامضـتين حموضـة صريحة ، فهي تجرض ريقها ، بين لحظة واخرى • ويتحرك منخرا انفها الدقيق ، بفعل نوازعها المستثارة •• واذكر انني ، بتأثير هذا كله ، وتحت وطأة انفعالي الذي ما عدت استطيع كتمانه ، رحت ارتعش ، مثل مصاب بالحمى ••

ولقد كانت ، تتطلع بشغف ، الى ما اعتراني ، متلذذة باكتشافها لي ••

ـــ اسـمع ••

قالتها بسطوة كاملة :



ـ وعدتك أن آتيك بكتب •• هذه الكتب فيها كل شيء •• هل تريد ؟

ـ أجـــل ••

قلتها مرتبكا •• لم تمض بضعة أيام ، حتى كنت أحمل كتابين صغيرين ، مغلفين ، بعناية ، تغليفا مموها •• وقرأت العنوانين بلهفة :

« ما يجب ان يعرفه كل شاب » ثم « ما يجب ان تعرفه كل فتاة •• » بل لعل العنوانين كانا هكذا « ما يجب الا يجهله كل شاب » و « ما يجب الا تجهله كل فتاة » اية اثارة !! أية غرابة !!

ما كنت ، وانا أقرأ ، استطيع التركيز ، بسبب ما انتابني من ذهول ••

هل يعقل أن يكون في هذا العالم الذي اعيش فيه ، كل هذا القدر مــن الخفايا والاسرار •• يعرفها الجميع ، ويكتمونها ، ويمارسونها ، ويخضعون لسطوتها ، ثم يتظاهرون جميعا ، بالبراءة والنقاء ؟••

هل يعقل أن يكون في حياتنا ، كل هذا القدر من المتع والمباهج والحاجات محرمة حينا ، ومباحة حينا •• يتداولها الناس ، كـــل الناس ، وينعمون بها ، أو يشقون بصمت •• وفي الظلام •• شرط ان يكونوا كبارا ، وأن يحسنوا اخفاء عالمهم ، فهم في منجى من الاتهام « بسوء التربية » و « قلة الحياء » ••

ولماذا يكتمون ذلك ؟ ولماذا يتركوننا نحن الاولاد ، معذبين ، ومذلين ، بنقص معرفتنا •• بل مضطربين ، وحائرين ••

كنت اقرأ ، وأنا غاضب ، ومهتاج ، وحاقد •• أجل حاقد ، لانني اكتشفت مدى الخديعة التي كنت اعيشها ، حتى وأنا مع اهلي ، الذين علموني ، لسبب ، غير معقول ، ولا رحيم ، ان جسدي خطيئة ، محرم علي لمسه أو وصفه أو حتى الشكوى منه ••

ـ عيـــب ••

وهم يدرون ، ان الف شيطان ، كان يقول لي : لا •• ليس عيبا ••



والكهنة ، يقولون :

ـ عيب ..

فأروح اصلي .. وأصلي ، حتى يدركني اليأس ، وعند ذاك ، اكتفي باعلان عجزي أن اكون قديسا .. لاحتقر جسدي ..

والان ، في هذا الوقت المتأخر من الليل ، اقرأ وأقرأ .. ولا أفتأ اتساءل

ـ لماذا ؟

اقولها من كل قلبي محتجا على قسوة غير مبررة ، وأنانية حمقاء .. والا ، فما الذي كانوا سيخسرونه ، على الاقل ، لو انهم ، كانوا رحماء ، وحكماء ، بحيث ، يوحي أي منهم لي ، ان لمس جسدي ، ليس خطيئة ، بالشكل الذي تصورته ، أو صوره لي الاخرون ، فيكفيني بذلك ، عذاب سنوات ، احسست خلالها بالعار والاذى ، والمهانة ، لانني ، لم استطع ان امنع نفسي من اكتشاف علاقة نفسي بجسدي ، وعلاقة جسدي باجساد الاخرين ..

لماذا كانوا يريدون ، ان يلغوا من ذاكرتي ، تاريخ اعضائي ، وهو تاريخ، صادق ، ومعافى ، وضروري ، ولا مناص منه .. ما دام يتشابه بتواريخ كل الاعضاء الانسانية وما دام ، وهذا ما سأكتشفه بعد قليل ـ مسؤول بالضبط ، عن الحياة والخصب ؟..

قال العميان : ستصاب بالعمى ..

وقال قساة القلب : ستصاب بالجنون ..

ثم جاءتني (كاف) ، مدفوعة بنزوات مبهمة ، فأعطتني لغة جديدة ، وذهنا متزنا ، يطمئنني ، الى أنني اشبه ملايين الاولاد ، في مثل سني ، وان لا خوف علي من الجنون ..



مجرد كتابين •• قرأتهما عشرات المرات ، بنهم ، وتلذذ ، وخوف ، وانبهار وحرص •• ثم أريتهما لاصدقائي فوق كل ذلك بنية سـيئة ، اريد من خلالها الانتقام من اسرار الكبار •• وأنانيتهم ، غير المبررة ••

ولئن كنت قد سعدت بأكتشاف ما ينبغي أن لا يجهله كل شاب •• فقد كانت سعادتي اضعافا مضاعفة ، واذا اكتشف كل ما ينبغي ان لا تجهله كـل فتاة •• كان يبدو لي ، انني انما اتلصص ، على اسرار الفتيات ، على حيائهن الجميل ، وحلاهن الخفية •• وازيد على كل ذلك ، فأفهم وظائف كل هـذه الاسرار •• بشراهة لا ترتوي ••

ومن عجب ، أنني كنت افعل ذلك ، دون أي قدر من احساس باثم •• بحيث لم يخطر لي ان استغفر عن هذا الانتهاك المفاجىء الذي ارتكبه ، فلقد كان الكتابان ، يتحدثان ، بنوع من النبرة ، بريئة رغم كل شيء ــ ورصينة •• وباعثة على الاحترام ••

بعد شهر ، اعدت الكتابين الى (كاف) ••

اعدتهما اليها ، بعد ان قرأتهما مرات عديدة ، وتلذذت بهما ، وشاركت (حازم) صديقي في فرح اكتشافي •• فلم ينس لي هذا الفضل •

سألتني (كاف) ان كان الكتابان قـد اعجباني •• فقلت لها ، بمكر •• أنني لم أجد فيهما ما لا اعرفه •• فقرصتني كعادتها ، وقالت بذكاء :
ــ فما بالك احتفظت بهما شهرا كاملا ••

واسلمتني كتابا جديدا ••

كان الكتاب هذه المرة ضخما ومغلفا أيضا بعناية • واوصتني ،

ــ حذار أن يراه أحد من اهلك ••

ــ لا تخـافي ••



ـ كيف لا آخاف •• اسمع •• افرض أن احدا مـن أهلك عثر عليه عندك ، فماذا ستقول لـه ؟••

ـ اقول انني استعرته من المكتبة ••

ـ حذار ان تذكر اسـمي ••

اردت ان اسألها : « وأنت ؟• من أين تأتين بهذه الكتب ؟•»

ولكنني لم افعل •• فقد شغلت في الوهلة التالية ، بأن انظر اليها ، وفق عيني الجديدتين ، مقدرا ، بشغف مواضع اسرارها ، التي يجب الا تجهلها أي فتاة •• وان لا يجهلها فتى مثلي •• ولقد حدست معنى نظراتي ، فسألتني :

ـ لماذا تنظر الي بهذه الطريقة •• أما تستحي ؟

ـ ولمـاذا استحي ؟••

ـ يا عيني ••

كيف لا اتحدث عن (كاف) •• بعد كل هـذه السـنوات ، باحترام ، وعرفان • رغم أنها تسببت ذاك العام ، في رسوبي الشنيع ، بالجبر والكيمياء ، والحساب والهندسة وال •••

كان الكتاب الكبير الذي اعطتنيه ، سفرا حقيقيا لمعرفة لاذعة ، وفضيحة محترمة ، فتحت لي عيني وقلبي وجسدي •• فاذا بي ارى العالم والناس من خلال هذه المعرفة العجيبة ، وأفسر كل الغوامض والخوارق على هديها •• من خلال خلاصة صـغيرة هي العلاقة بين الـرجل والمرأة •• آدم •• وحواء •• وقصـة الخليقة ••

يا للغفلة ••

كيف فاتني ، من قبل ان افهم ، عذاب آدم ، اذ خلقه الله وحيدا في الجنة•• ثم حاجته التي باركها الله حين ادرك وحشة روحه فخلق من اجـل سـعادته حواء •• التي بدا لي حينذاك انها كانت ذات عينين زرقاوين ؟



أجل •• لقد فسر لي الكتاب ، كل الخفايا •• وحل في ذهني معضلة « الشجرة المحرمة » وسر التفاحة التي اغرت حواء حبيبها آدم فذاقها ، وغامر من اجل ذلك بالجنة ••

تلكم •• هي التفاحة اذن •• وذلكم هو سر الحية •• وشجرة المعرفة ••

فلئن كان آدم قد ، سقط في الغواية ••

ولئن كانت حواء ، هي التي اغوته •• ولئن كان كل ذلك قد حدث في ذاكرة كياننا القديم •• فمن يلومني •• انا المراهق الذي في الصف الثاني المتوسط •• المتورط بسورات جسدي ، وبحب الشباب الذي يملأ وجهي •• من يلومني ، ان انا انحزت كما انحاز الانسان الاول الى الغواية ، وباع الجنة ، بالمعرفة •• وما المعرفة ؟

لا الجبر •• ولا الكيمياء ولا الحساب •• ولا الهندسة •• بل ما ينبغي ان يعرفه كل شاب •• وأن تعرفه كل فتاة ••

ولقد عرفت ذاك كله في تلك السنة ••

وعرفت ما هو اكثر منه

عرفت الحياة •• ورسبت في الامتحان النهائي ••




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخامس

صفوت




مكتبة
الفكر الجديد

لا مناص ، قبل أن اغادر « الثاني المتوسـط » مـن أن أتوقف عنـد « صفوت ابن المختار » ..

كان معاون المدير ، ذاك الصباح ، قد دخل الصف ، واسـتأذن مـن المدرس ، وراح يقرأ العقوبة التي انزلتها المدرسة بالطالب «صفوت» : خصم خمس درجات من سلوكه ، وفصله من المدرسة لمدة يومين ..

قرأ المعاون العقوبة ، والطلبة يبتسمون ، ومدرس الانكليزية يتطلع الى «صفوت» باحتقار .. وقبل أن يغادر المعاون الصف ، قفز «صفوت» فاعتلى الرحلة ، وصرخ بصوت يرتعش غضبا ، سمعته المدرسة باسرها :

ـ الكفر يدوم .. والظلم لا يدوم ..

وشهق من فرط انفعاله ، فما كاد يستطيع اكمال ما يريد قوله ، بل جاءت الجملة الاخيرة ، متقطعة الانفاس ، منبهرة ، ضعيفة ..

ـ وان دام .. دمـر ..

ـ اسـكت ...

صاح المدرس بالانكليزية .. فرد عليه صفوت ، وهو ما يزال منتصـبا فوق الرحلة ، يرتعش انفعالا :

ـ بل تسكت أنت يا جرجيس .. يا ابن فلانـة .. تسـكت .. ويسـقط الاسـتعمار ..

وساد الصف صمت غريب .. فما كان أحد مـن الطلبة ، يجرؤ على أن يضحك او يعلق وما عاد مدرس الانكليزية ، يملك ان يحتج ، فلقد سـحقه



صفوت ، تماما ، حين اسماه بأسم أمه •• وزاد ، فراح يشتم الاستعمار بدون سبب معقول ، ولا مبرر واضح •

واذ استطاع «صفوت» أن يحقق كل هذا المجد ، وأن يفرض سطوته على الصف ، وهو منتصب فوق الرحلة ، مثل نخلة تعاني سوء التغذية ، فقد كان متوقعا ، أن يكتفي بما حققه ، وأن يفكر ، بما سيعقب ذلك ، وبما يمكن أن يفعله ، بعد قليل جرجيس بن فلانة ، حين يفيق من ذهوله •• وما قد يتخذه معاون المدرسة الملقب بـ (بكر سوباشي) ، الذي مدّ رأسه قبل لحظات ، من فتحة الباب ، ورأى المشهد ••

لكن «صفوت» ، كما بدا للجميع لوهلة ، استمرأ الحالة التي وجد نفسه فيها ، فراح يهتف ، مادا ذراعيه الطويلتين ، ملوحا بكفه اليمنى :

ـ أنا جندي للوطن •• وحبيبي العراق ••• وأنا فوق ذلك عبدالمسيح ••

اراد الطلبة أن يضحكوا ، فقد كانت هذه الهتافات المفاجئة ، التي لا ترتبط بحدث ما ، يستدعيها ، تبدو هزلية الى أبعد حد لكن الصدق ، والحرارة التي كان «صفوت» يؤدي بهما دوره ، لم يشجع للمرة الثانية ، الا على احترام ما يعانيه •• ولذلك ظل يصرخ فوق الرحلة لوحده •• فيطوف صوته ، في ذاك الصباح الخريفي ، ويتوزع المدرسة ، مقدما احتجاجات مبهمة •• وشديدة الحزن ••

همس مدرس الانكليزية من مكانه في صدر الصف :

ـ كفى يا صفوت ••

ولكن «صفوت» لم يسمعه •• كان صوته قد غدا الان مبحوحا ، وراح جسده يترنح فوق الرحلة •• وللمرة الثانية همس مدرس الانكليزية ، مناشدا الطلبة :

ـ اسكتوه ••



قام «طه» وهو تلميذ يشارك صفوت رحلته ، ومد يده الى زميله ••

ـ يكفي يا صفوت ••

ـ لا •• لا •• ما يكفي ••

حاول «صفوت» أن يصرخ ، ولكن صوته خانه تماما ، واختل توازنه على الرحلة وهو يحاول ان يلوح بذراعه ،•• فسقط ، وتلقفته ايدي الزملاء الذين بالقرب منه •• ورأيناه محمولا على اكتافهم ، وهو يعاني نوبات من التشنج ، شبيهة بتلك التي يعانيها المصابون بالصرع ••

وسمع صوت يهمس :

ـ لقد اغمي عليه ••

قال المدرس :

ـ احملوه الى الخارج •• خذوه الى الادارة ••

وبصمت ، وارتباك ، تبرع عدد من الطلبة ، فحملوا «صفوت» ، كما يحملون جثة • وغادروا به الصف ، والقوا به على الارض عند باب المدير •• ثم قبل أن يقرع الجرس ، جاء من حمل «صفوت» من المدرسة ، الى مكان مجهول ••

ما من أحد في محلتنا لم يكن يعرف «صفوت» ابن المختار ••

كان ملمحا من ملامح تلك المحلة •• ودعابة من دعاباتها القاسية •• واول ما في تلك الدعابة رسوبه المستمر ، منذ دخل المدرسة ، بالحساب •• يلقاه أي من أهل المحلة ، ويسأله ، كمن يفعل ذلك للمجاملة :

ـ ها يا صفوت •• كيف الحال هذا العام ؟••

ويضحك «صفوت» ، وهو يلوح بكفه الكبيرة :

ـ كالعادة ••



ـ راســب ؟

ـ ان شاء الله

فصفوت ، لابد أن يقضي في كل صف سنتين ، بسبب الحساب .. تعلن النتائج ، فاذا هو ناجح بكل الدروس ، ومكمل في الحســاب ، وفي امتحان المكملين ، يرســب «صفوت» ويكون عليه أن يعيد الســنة .. وانه ليعيدها بروح رياضية ، مفعمة بالسخرية ، فاذا جاء الامتحان النهائي ، واصبح صفوت مهددا بالرسوب من جديد ، ثم ، بالفصل من المدرسة لرسوبه سنتين متواليتين هب للتوسط له ، عدد من الخيرين ، فاضطروا المعلم والادارة ، الى مســاعدة هذا الطالب سيء الحظ ...

ـ تكفي خمسون درجة ليعبر ..

وتعاد المهزلة من جديد .. وتكون نتيجة ذلك كله ، أن «صفوت» اصبح أكبر سنا من الصفوف التي يدرس فيها .. وأن أطفالا ، من أهل المحلة لحقوا به ، وصاروا في صفه ..

ـ أما تستحي يا صفوت ؟..

يقولها له القس ، بنبرة لا تخلو من استفزاز .. فيرد «صفوت» ضاحكا.

ـ اذا لم تستح .. فاصنع ما شئت ..

غير آبه ، بأن «المثل» الذي ، ساقه ، دونما منطق ، يمكن أن يسيء اليه «فلصفوت» ، منطقه الخاص ، في استعمال الامثال ، وابيات الشــعر ، وهو يحفظ منها الكثير ..

ومن سلوك كهذا ، أصيل ، وأخرق ، كان ينبع الاحساس بالدعابة ، ازاء ما يقوله «صفوت» أو يفعله .. يزيد من أثر هذا ، أن هذا الفتى ، صار لــه ، مظهر الرجال ، فهو طويل ، طولا غريبا ، يدلل على ذلك ، انحراف في جذعه ، حين يسير ، أو ، حين يتخذ سمتا جادا ..



ولقد نما شارباه •• واكتملا •• وبدت عليه امائر صلع مبكر •• فكيف لايبدو مثيرا للضحك ، حين يراه أهل المحلة ، وهو يسير في الطريق حاملا ، على كفه اوقية من الرطب ، يأكل منه ، ويرمي النواة على الارض ••؟•

ـ ما هـذا يا صفوت ؟

ـ رطب •• تفضل ••

ويمد يده بكرم ، وهو يغمز ، قائلا :

ـ التمر مفيد ••

ويضحك من كل قلبه :

ـ سل مجربا •• ولا تسل حكيما ••

ثم يسترسل في ضحكته ، كانه يتذوق معنى التمر مرتبطا بحكمته •• ويعدي ضحكه الذين يسألونه •• فهو يدري ، وهم يدرون ، عن أيما «فائدة» يتحدث •• وانهم ليلذون الجرأة والبساطة التي يتحدث بها «صفوت» عن اسراره ••

ومن بين تلك الاسرار ، اخبار تلك «العادة» التي أولع بها مبكرا ، وتآلف معها ، فهو يتحدث عنها ، كمن يتحدث عن ادمانه التدخين !

ـ كم مرة • في اليوم يا صفوت ؟••

ـ كثيرا ••

ـ خمس مرات ؟

ـ أجل خمس مرات •• أحيانا اكثر •• أحيانا أقل ••

ويعلق أحد الاولاد : من بين ضحكات الاخرين :

ـ ولكن هذا مضر ••

ويضيف آخر :

ـ وهو فوق ذلك خطيئة ••



وتكثر التعليقات •• بينما يكتفي « صفوت » بضحكته والتفاف الاخرين حوله ، ناسيا ما كان أهله قد بعثوا به من أجله الى السوق •• فهو مستغرق ، ومنهمك في الرد على ما يلقى عليه من اسئلة ، وما يطرح دونه من اقتراحات ، ومن ذلك أن يقلد هذا المدرس أو ذاك ، أو ذلك القس أو سواه••

ـ قل عن معلم الدين ••

ـ فرس النبي ••

ويضحك الاولاد ••

ـ فكيف به حين يدخل الصف ؟

ـ يدق الجرس •• ويخرج القس «اسطيفان» من غرفة المعلمين و •••

ويصغي الاولاد بشغف وحبور الى «صفوت» وهو يتقمص دور «القس اسطيفان» ، ويتابعون ما يجري ، بنوع من التشفي مستعيدين ما أذاقهم أياه معلم الدين من عقاب ••

ـ وبعد •• وبعد يا صفوت ؟•• ماذا عن مدرس الجغرافية ؟••

ـ خنفساء في الصوف ••

ـ ومدرس الاحياء ؟

ـ عبدالاحد أفندي ؟••

يقولها «صفوت» ، ويستغرق في الضحك ، فيعدي بضحكته الاخرين•• ويروحون يستحثونه :

ـ احك لنا حكايتك معه يا صفوت ••

ـ ولكنكم تعرفونها ••

ـ لا يهم •• احكها لنا من جديد ••

ويحكي •• ويصغي اليه الجميع بمرح •• فهم يعرفون « عبدالاحد » جيدا لانه واحد من أهل المحلة •• ولقد اعتادوا أن يروه ، في وقت مبكر من



صباح كل يوم ، وهو يرتـدي « البيجامة والروب » ، واقفـا يبتاع الخبـز «والقيمر» من السـوق •• والفوا أن يلتقوه مـع زوجته الحلبية ، يقطعان الطريق ، غير آبهين ، بما يشكله منظرهما ، من مفارقة : هو بطوله ، ونحولـه وصلعته الكبيرة••وهي بضآلة جسمها ،ونظارتيها السميكتين ،وتأنقها المفرط•

ـ خنفسانة تمشي مع « ابو بريص » ••

ويضيف صفوت مستدركا على تشبيهه :

ـ تصوروا •• « ابو بريص » واقفا على ذيله ••

ـ وبعـد •• يا صفوت ؟••

ويلوي «صفوت» شـفته السفلى ، مقلدا مدرس الاحياء ، وهو يلقي الدرس مؤكدا على حرف «السين» ، الذي يلثغ به المدرس فيلفظه « ثاء » •• مستعينا بنبرة خنّاء ، يبالغ فيها ، حين يستعمل بعض الكلمات الحلبية ، التي تدلل على تأثر « عبدالاحد » افندي بعشرته لزوجته ••

وحكاية •• تجر الى حكاية ••

وكلها طريف •• حين استعيدها الان ، اكتشف بحنان ، أن صفوت ، وهو بطلها جميعا ، كان لفرط شغفه بشخصية « عبدالاحد » ، يندفع ، بمحض ، حسه الفكاهي ، ومزاج الدعابة المرير ، الكامن في نفسه ، باعتباره ، انسانا سـيء الحظ ، الى افتعال مواقف ، يستفز بها هذا المدرس ، الذي كـان عند ذاك في الخمسين من عمره ، من أجل أن يكشف عن مزيد من طرافته وغرابته ••

هل كان « عبدالاحد » ظريفا حقا ؟

اجـل •••

انني اذ استجمع في ذهني السـاعة ملامح شـخصيته ، أدرك كم كـان «صفوت» : موفقا في ولعـه ••



فعدا عن طرافة مظهر «عبدالاحد» الخارجي ، كان ثمة في اعماقه ، تلك الخصوصية ، والطيبة اللتان لابد منها لايما شخصية طريفة •• وابسط مظاهر خصوصيته ، عناده ، ومثابرته ، وهو يعبر عنهما بوضـوح ، في حبه غير المحدود للموضوع الذي يدرسه •

كان يحدثنا مثلا عن الجهاز التناسلي للارنب •• وكأنه يتحدث عن أرنبة بعينها ، هي اخته ، أو بنت خالته •• فهو محرج ايما احراج •• ومخلص وأمين أيما أمانة •• بحيث يشحب وجهه ، وتند قطرات من عرق سري فوق صلعته ••

وصفوت •• يصغي معنا الى كل التفاصيل ، ووحده ، دوننا ، يظل يهز رأسه ، كناية ، عن متابعته للدرس ، وفهمه له ••

وسينتهي «عبدالاحد» افندي من شرح الموضوع •• وسيتنهد رويدا•• ويصمت من أجل أن يستريح •• تاركا لنا ، أن ننقل من السبورة ، التخطيط الذي رسمه عن جهاز الارنب التناسلي ••

فاذا انتهى ذلك كله ، كنا ندري أن مدرس الاحياء ، سيناشدنا جميعا ، ان نسأل عن أيما نقطة لم نفهمها ، أو ملاحظة يراهـا أحد غامضـة وتحتـاج الى توضيح ••

وأنه ليلح علينا ، بان نسأل •• وأن لا نتردد ••

واذ لا يرفع أحد منا يده ، فأن «صفوت» وحده ، هو الـذي اعتاد أن يتبرع بهذه المهمة •• كانما يفعل ذلك ، اشفاقا على مدرس الاحياء ، واستجابة لحرصه •• وتكرما •• فيرفع يده •• وقد توجها بسبابته الممدودة عاليا ••

ولكن «عبدالاحد» افندي •• الذي يستجيب لكل يد ترتفع ، يتجاهل يد « صفوت » ••

أجل يتجاهلها عن عمد •• مما يضطر «صفوت» الى استعمال صوته فيروح يردد :



ـ استاذ .. استاذ ..

وهو يدري أن مدرس الاحياء يضيق بهذا النداء :

ـ لا تقولوا استاذ .. ما من داع لذلك .. يكفي أن يرفع أحدكم يده فأراه .. أنا لست أعمى ..

ـ استاذ ..

يقولها «صفوت» بهدوء اولا .. ثم لا يلبث أن يرفع صوته ، حين يصر المدرس ، حتى على تجاهل ندائه ..

ـ استاذ ..

وعند ذاك ، يكون «صفوت» قد نهض من مكانه ، وذراعه ، ما تزال مرفوعة ، وسبابته منتصبة .. وصوته يملأ قاعة الدرس ..

ويسقط في يد مدرس الاحياء عبدالاحد أفندي ، خصوصا ، حين يبدأ الطلاب يضحكون .. فينبري غاضبا :

ـ العمى يا صفوت ؟.. لماذا تزعق ؟

ـ سؤال ..

ـ حسنا كان يكفي أن ترفع يدك ..

ـ منذ ساعة وأنا ارفع يدي ..

ـ لا تكذب يا ابني .. لم يمض على رفعك ليدك سوى دقيقتين ..

ـ ولكنك لم ترني ..

ـ كيف لم أرك .. اتحسبني اعمى ؟..

ـ نظرك ضعيف .. يا سيدي .. ولهذا فانت ـ لا تغضب ـ ترتدي عوينات.

ـ ولكنني أرى جيدا ..

ـ فلماذا لا تأذن لي بأن اسأل شأن بقية الطلبة ؟..

ـ لان سؤالك سخيف ..



ـ وما أدراك يا سـيدي ؟..

ـ وما أدراني ؟.. ما من مرة سألت يا ابني سؤالا معقولا ..

ـ بل أنت تكرهني يا «عبدالاحد» افندي .. ولا حيلة لي في ذلك ..

ـ كفى .. يا صفوت .. اجلس في مكانك ..

ـ ذاك لاني فقير .. وأبي مجرد مختار .. وليس متصرفا ..

ـ اجلس يا صفوت ..

ـ وليس لي من يسندني ..

ـ اخرس .. يا ولـد ..

ـ لو كنت ابن .. فلان .. وفلان ..

ـ اغلق فمك .. يا حمار ..

ـ لست حمارا ..

ـ ماذا أنت اذن ؟..

ـ أنـا ؟..

يقولها «صفوت» وقد اندمج في دوره ، فهو يؤديه على احسن وجه ..

ـ أنا يا استاذ ؟.. أنا .. أرنب ..

ويضحك الصف .. ويضطر عبدالاحد افندي لان يضحك هو أيضا .. ويقول « لصفوت » :

ـ والان .. لا بأس .. هات سؤالك ..

ويدق الجرس .. وتأتي الفرصة .. ثم يدق الجرس مرة ثانية .. وثالثة وعاشرة .. ويظل يدق ، حتى يجيء ذاك اليوم الصعب .. الذي صرخ فيه «صفوت» صرخته الشهيرة بوجه المعاون :

ـ الكفر يدوم .. والظلم لا يدوم ..



انني لن أنسى قط ، تلك الوحشية التي كانت تجرح حنجرة ابن المختار وهو يعبر ، بأقصى ما يملكه انسان مظلوم ، كتم احساسه بالظلم سنوات ثم جاءت لحظة ما عاد يستطيع فيها الكتمان •• فانفجر ••

أجل •• انفجر «صفوت» ، ولكنه ، وا أسفاه ، لم يؤذ بانفجاره سوى نفسه •• فهوى بعد دقائق ، غائبا عن وعيه •• وجاء رجال غرباء ، حملوه الى مكان مجهول ••

قال بعض الطلبة :

ــ لابد أنهم أخذوه الى بيته ••

وقال آخرون :

ــ بل نقلوه الى المستشفى

ثم جاء من يهمس :

ــ أخذوه الى مستشفى المجانين ••

كان قد .. انقضى على الخامس من حزيران اسبوعان وربما اقل ... واذ ثقلت ((النكسة)) على الجميع ، فقد كان طبيعيا ان تثقل على مئات من المعتقلين والمحجوزين في ذاك المعتقل الصحراوي ، فقرروا كتابة مذكرة يحتجون بها .. وكلفوني ، باعتباري اتقن الكتابة ان اصوغ لهم مذكرة احتجاجهم ..

اذكر انني كنت اقف امام ردهة طويلة ، يحتشد فيها المعتقلون ، وانني رحت اقرأ لهم المذكرة ، لمجرد رفع المعنويات كما قال المسؤول ، وانا اتـذوق احساسي بقدرتي على الكتابة ، اكثر من اهتمامي بجدوى مذكرة يبعث بها معتقلون في ذاك الزمن المبتذل .

في الصف الامامي من الحشد ، كان ثمة عدد من المعتقلين يتوسطهم ، ((عبدالعظيم)) ذاك المعتقل الذي جاءوا به من البصرة ، تلتمع ملامحه السود ، وعيناه الذكيتان .. ويملأ جسمه الرياضي المفتول المكان ، بثقة واعتداد ... ذاك ان ((عبدالعظيم)) هو واحد من افضل رافعي الاثقال .. وقوته الجسمية ، تنافس ، مثل كل الذين يشبهونه ، طيبة قلبه ونقاء معدنه ..

ولقد ازدهاني ، وانا اقرأ ، ان اسمع همهمات انفعال واعجاب تصدر عن هذا العملاق الاسود ، فزادني ذاك تلذذا ، فرحت اتفنن في القراءة ، محاولا ، جهدي ، ان اعبر بصوتي ، اضافة الى كتابتي ، عن مدى الحيف واللا عدالة التي



نعيشها ، نحن المعتقلين المخلصين ، في زمن كهذا الذي نمر به ، حيث يحتاج الوطن الى قدراتنا ، وتتطلب الامة كفاءاتنا ، وقوة ايماننا لمواجهة النكسة ...

انا اقرأ .. و « عبدالعظيم » .. يهمهم ..

وازيد .. و « عبدالعظيم » .. يتمتم ..

وازيد .. وعيناي ، تسترقان النظر بارتياح الى اثر ما كتبته ، في انسان، طيب ، ما كنت احسب ان كلمات ، مثل كلماتي تستطيع ان تصل اليه ..

مضت بضع دقائق .. وبنظرة سريعة ، استطعت ان ادرك ان «عبدالعظيم» بدأ يبكي .. فاثر بي بكاؤه ، وزدت انفعالا ...

ثم رأيت العملاق يضرب بجماع كفه على صدره .. ولم يلبث ان بدأ يشد جلبابه ، فمزقه عند العنق ...

وارتبكت ...

ولكنني ما كنت استطيع التوقف ...

كانت المذكرة ، في تلك اللحظات ، تتحدث عن طيب العراقيين ، وعن السخف الذي يعنيه احتجاز اناس مخلصين . مثلنا ، في حين ، يظل اعداء الوطن والامة ، احرارا لا من حسيب ولا رقيب ...

وقف العملاق ...

كان قريبا مني ، بحيث خيل لي اني اشم رائحة دموعه ، وسمعت صوت لهائـه ..

وبدا لي عر يصدره غريبا ، وحزينا في آن واحد . فلم اعد استطيع القرءة ...

واذ سكت ... فقد سمعته يصرخ .. مجرد صرخة ... كانها تصدر عن شيء يتمزق في كيانه فهي لا تنطوي على كلام ...

ولقد سمع الجميع صرخته ، وفهموها ... ولامر غريب ، شعروا بالخوف منها ، كانهم اشفقوا من ان تصدر عنهم الان او بعد قليل ، صرخة موحشة ، كهذه ، مليئة بالاحساس بالقهر والظلم ...

واحسب ان « عبدالعظيم » نفسه . سمع الصرخة واستوعبها ... لانه صمت لحظة ، حتى انتهى الصدى ... وعند ذاك عوى ...

اصدر عواء انسانيا ، يختصر تاريخا من الاحساس بالقهر والظلم ، لا يصح، ولا يتناسب ، مع معرفته الاكيدة ، بقدرة جسمه ، وسطوة عضلاته التي تدربت لسنوات على الحديد .

وفهم الجميع .. وساد صمت مليء بالاحترام ، والتعاطف .. لولا ان « عبدالعظيم » ، في تلك اللحظة الصعبة ، اختار ان يستعمل احساسه بقدرتـه ،



بمجرد العدوان على نفسه .. فركع .. كانه مقبل على صلاة .. وراح يضرب راسه بارض المعتقل ..

كان يصدر عن ارتطام عظام راسه بالارض صوت لا يمكن احتماله ... وقد استغرق ذلك بضع ثوان ... كانت كافية لان تدفع المسؤول الى اتخاذ قرار .. فما زاد على ان أوما لعدد من المعتقلين ، بدأ وكانهم ، كانوا ينتظرون اشارته .. لانهم سرعان ما احتاطوا « عبدالعظيم » ، وجربوا ان يمنعوه عن هذا الضرب من التعبير عن احساسه بالظلم ..

ولم يكن ذلك سهلا ..

لقد تحول « عبدالعظيم » . في لحظة الى جبار ، لا مجال للسيطرة عليه .. فراح يقاوم .. وافلح في ان يفلت من السواعد والقبضات التي حاولت ان تمسك به لمجرد ان تمنعه من ايذاء نفسه ..

كم استمر ذلك الصراع ؟

من المؤكد انه لم يستغرق سوى بضع دقائق ، ساد فيها صمت شاحب ، ما كان يسمع فيه . غير لهاث الرجال .. وصرير اسنان « عبدالعظيم » ...

ثم فجأة ، وبدون مقدمات ، انهار العملاق تحت وطأة ما عاناه .. وغاب عن الوعي .. فحملوه ، خارج سور المعتقل ..

قال بعض المعتقلين :

ـ لابد انهم اخذوه الى مستشفى السماوة ...

قال آخرون :

ـ لعلهم سيطلقون سراحه

وقال واحد من المسؤولين بحزن :

ـ اخشى ان يكونوا قد ذهبوا به الى مستشفى المجانين .

ولقد بدأت المشكلة في الدرس الاخير من يوم السبت .. كان الامر مجرد مزاح ثقيل ، احتمله «صفوت» كعادته . بضع دقائق ، محاولا بروح رياضية ، أن يصرف النظر عن سخف صديقه « طه الهرطمان » ـ يا له من لقب ـ وهو يحاول أن يلطخ «بنطلون» صفوت بالحبر .. أي مزاح هذا ؟ لولا أن « طه الهرطمان » هو ، طه الهرطمان ، وانه لامر اقرب الى العبث ان تفهم هذا «الهرطمان» أن مزاحه هذا مؤذ ، خصوصا ، حين نضع في اعتبارنا ، أن «صفوت» يكاد لا يملك سوى هذا «البنطلون» ..



حاول «صفوت» بكياسته الاصيلة أن يتفادى المشكلة •• وحين ضاق بمزاح زميله ، جـرب أن يشـكوه الى مـدرس اللغة الانكليزية الاسـتاذ «جرجيس» بن فلانة •• ولكن جرجيس ، كما يعرف الجميع ، ما كان يقبل اية شكوى من طالب •• فهو منهمك في القاء الدرس ، وأية شكوى يتقدم بهـا طالب اليه ، هي في عرفه ، محاولة ، لئيمة ، لارباك الدرس ، والانتقاص مـن هيبة العلم والمعلم ••

ولقد كان «صفوت» يعرف هذا •• وكان فوق معرفته هذه ، يأنف من أن يشكو أيما انسان •• ولكن «طه» ، تمادى •• والبنطلون عزيز •• ولهذا جرب «صفوت» ، أن يرفع يده ، ويشرح لمدرس الانكليزية ظلامته •• فواجهه مدرس الانكليزية ، بالتعنيف ، وشتمه بلغة انكليزية فصـيحة ، وقـال لـه ما ترجمته : انه غبي واحمق •• فضحك الصف باسـره لمحنة «صفوت» •• واضطره الضحك لان يعود الى الجلوس ••

ولقد استغل « طه الهرطمان » هذه الخيبة ، فراح يتفنن في ايذاء زميله ولهذا ، ضاق صدر صفوت ، فقام من مكانه ، أمام الجميع ، وراح ينهال على «الهرطمان» ضربا ، بمجموعة من الكتب يحملها في يـده •• و «الهرطمان» يضحك مستسلما ، والصف في هرج ومرج •• ومدرس اللغة الانكليزية يزعق بصوت ضائع ، مهـددا «صفوت» ، وبالانكليزية ايضـا ، ان عليه ان ينتظر جزاء استهتاره •• أقصى العقوبات ••

وما أقصى العقوبات ؟••

لقد تذوق صفوت لسنوات ظلم عقوبة غير مبررة بسبب درس الحساب. وها هو ، منذ بداية هذا العام ، حيث يعيد السنة ، مهدد من جديد بالرسوب ، وهو تهديد جدي وخطير ، عبر عنه صباح السبت مدرس الحساب نفسه ، حين قال لصفوت ، بوضوح : انه اذا استمر على هذا المنوال فسيرسب لا محالة ••



وحلف : وفي هذه المرة •• ما من وساطة ستفيدك •• ولا من أحد يشفع لك حتى لو كان شفيعك وزير المعارف نفسه •

أفلم يكن ، بعد هذا ، من حق «صفوت» أن يحزن ، ويرتبك ، ويضيق صدره •• بل أن يخاف ، كما يخاف ، كل البسطاء من التهديد ، ويصدقونه ؟•

بلى •• ولقد اختار هذا «الهرطمان» وقتا غبيا للمزاح ، وما استطاع أن يدرك ، أية معاناة ينطوي عليها زميله ، فلو أدرك ذلك ، لتردد طويلا ، قبل أن يسبب الاذى بمزاحه السمج هذا ، والصادر • في الوقت نفسه ، عن مجرد طيبة • لا تعرف كيف تفرق بين الدعاية والسماجة ••

قلت ان «صفوت» انهال على «طه» بالضرب •• وحين اكتفى •• حمل كتبه وغادر الصف ، ومن خلفه صوت « جرجيس بن فلانه » يناشده وبالانكليزية أيضا أن يعود الى مكانه ••

صباح الاحد عادُ «صفوت» الى المدرسة ••

كان شاحبا وحزينا ••

وظل طوال الدرس الاول يرد على مدرس التاريخ ، وهو جالس في مكانه ، وبدون أية مناسبة ، مستخدما جملة واحدة ، يقولها بوضوح وبلغة فصيحة ! موجها كلامه الى المدرس :

ــ كلا •• أنت على خطأ ••

وعبثا حاول مدرس التاريخ اسكاته •• فقرر أن يهمله •• ولانه فعل ذلك ، فقد كف «صفوت» أيضا عن الكلام ••

ثم جاء الدرس الثاني •

وجاء المعاون ، وقرأ العقوبة التي طالب مدرس اللغة الانكليزية انزالها «بصفوت» جزاء استهتاره واستهانته بحرمة الدرس والمدرس •



وكان بعد هذا ما كــان •• واختفى «صفوت» وصــوته ظل لاصــقا بذاكرتي •• يتحدث عن الكفر الذي قد يدوم •• والظلم الذي لن يدوم •• لانه ان دام •• دمر ••

اكملت الدراسة المتوسطة •• ثم اكملت الاعدادية •• والتحقت بــدار المعلمين العالية • في قسم اللغة العربية ، ولم البث أن تخرجت في الدار وعينت مدرسا للغة العربية في اعدادية الموصــل •• ولمجــرد التجربة قبلت أن القي محاضرات على طلبه الدراسة المسائية ••

اذكر أنني دخلت الصف الخامس •• فنهض الطلبة بتثاقل ، ثم جلســوا ورحت اتطلع في الوجوه •

وفجأة توقفت عيناي عند الزاوية في آخر الصــف •• فثمة ، على رحلة قديمة •• كان يجلس «صفوت» وحيدا شاحبا ، تزينه ابتسامته المعهودة ••

ولم أصدق •• فصحت :

ـ صفوت ؟

ـ أجــل

وقام مستندا الى رحلته •• والتقت عيوننا •• وزاد المساء مرارة ••



الفصل السادس

النبي داؤد





كانت عمتي ، تلك الحولاء الاريبة ، ممدة على فراش موتهـا ، مزرقة ، معقودة اللسان ، تتطلع الى الذين حولها ، جاهدة في أن تستخدم آخر قدراتها على الاحتقار ، من خلال عينيها الداهيتين ، وهـي ترد بهما على كـل هؤلاء المنافقين ، وقد جاءوا ، يتوسطون لديها ، أن لا تموت ..

قالوا لهـا :

ــ ان كان ينبغي أن تموتي حقا .. فحرام أن تموتي من القهر .. لست أنت التي يصح أن تموت ميتة كهذه ، ومن قبل ، ما استطاع غرق اخيك الاصغر أن يهدك ، ويلقي بك على فراش الموت .. كنت جبلا يا حولاء .. فتشجعي.. ماذا لو حكموا على ابن اخيك بالاعدام ؟ لن ينفذوا الحكم .. «داؤد» لـن يموت .. وأنت تعرفين ذلك .. سيذهب «الامير» الى بغداد .. ويتوسـط لـه .. الامير « يفك مصلوب » ..

كنت اسمعهم ، يديرون حول فراش موتها ، كل هذا القدر من الهراء ، وأتساءل ، لماذا ؟ من اعطاهم الحق ، في أن يسببوا للحولاء كل هذا القـدر من العـذاب ؟..

واذ تساءلت نيابة عن عمتي التي احبتني ، فقـد جعلني ذلك اكتشـف للتو ، أنها تحب «داؤد» اكثر من حبها لي ، وانها بسبب هذا الحب ، توشـك أن تموت ، هي التي ، لم يخطر لها قط ، أن تموت من أجلي ..

عضتني الحقيقة ، ولكنها بقيت محتفظة باحترامي لها .. كنـت برغـم ما احسسته من غيرة ، غير مؤهل لان أتنازل ، عن الاحساس بالقداسة الـذي



بدأت احسه تجاه «داؤد» ابن عمي ، منذ أن اعتقل ونقلت الصحف ، أخبار محاكمته ، ثم نبأ الحكم عليه بالاعدام !.

بلى .. يستحق أن تموت الحولاء من أجله ، وأن يجري كل هذا الذي جرى ، ويجري .. وأنه لمن السخف والبلاهة ، أن يجرب أحد ، سلب هذا القديس هالته الرهيبة ، بأن يتوسط ، لان ينقذه من الموت .. بل انه لامر يدعو الى الغضب ، أن يجرب أحد ، من هذه العائلة حتى الصلاة من أجله ..

فهذا قديس من نوع جديد ..

انه يفوق « أرسين لوبين » قداسة وقدرة ، بمجرد أنه ابن عمي ، وابن أخ عمتي الحولاء ، الموشكة ، من أجله على الموت .. وهو ليفوق كل القديسين في نظري ، ويرتفع عنهم قدرا ، لانه موجود ، ولانني اعرفه ، واعرف أباه الذي هو عمي ، وامه التي هي «نجمة» امرأة عمي ..

قديس .. واكثر ..

لا يعوزه ، سوى أن تعلق صورته في الكنيسة ، وان يكون فيها ، حول رأسه تلك الهالة العجيبة ، التي يتمتع بها القديسون .. وأن نصلي له ، ونطلب شفاعته ، قبل النوم ، كما نفعل لكل القديسين ، الذين نؤمن ، بقدراتهم ، وبجدوى شفاعتهم ..

ولهذا ، فقد كنت اصغي لامي بحنق مكتوم ، وهي تعلن بخشوع أصيل عن سذاجتها ، مؤكدة لعمتي ، أن الحكومة قد الغت الحكم على «داؤد» ، وأنها في سبيل أن تطلق سراحه :

ـ حسب أن تقومي من فراشك ، وأن تحل العذراء القديسة عقدة لسانك .. وغدا ، وبعد غد ، يأتي «داؤد» ، وتقر به عيناك و ..

أية بلاهة ..

كنت اصغي الى أمي ، واتعجب للقدر الذي تنطوي عليه من السذاجة ، بحيث ، خيل لها ، أنها تستطيع أن تحتال ، على أحد أصلا ، ثم أن تحتال



بالذات ، على عمتي الحولاء ، وهي على فراش موتها •• امي التي • ينبغي ، أن تعرف ، اكثر منا جميعا ، أنه ما من أحد اسـتطاع ، أن يحتال على هـذه الارملة ، ويهرب من رقابة عينها المدربة ، بقوة الحول والمرارة والدهاء •• ثم •• ما عليها هي ؟••

ما الذي يعني لها «داؤد» •• ولماذا يهمها ، الى هذا الحـد ، أن تفتري عليه ، فتدعي ، أن الحكومة ، كفت عن رغبتها في اعدامه ، وتزيد ، فتوكد ، لهذه المشرفة على الموت ، ورعا وقهرا ، أن الحكومة ستطلق سراحه •• مـن أين واتتها الشجاعة ، على ان اقتراف كذبة كهذه ؟•

ما مصلحتها ، في أن تسلب ابن عمي ، فرصته ، في أن يكون قديسـا ، حارمة بذلك العائلة كلها ، من مزية أن يكون بين افرادها ، رجل قديس ، فضل الموت ، بسبب عقيدته ، تماما ، كما فعل من قبله « الربان هرمز » و « يعقوب المقطع » و « شمعون برصباعي » •

ما مصلحتها في هذا •• هـا ؟

ما مصلحتها ، في أنها اصبحت تصلي يوميا ، قبل النوم ، أن يخفف الله والعذراء القديسـة عن «داؤد» ابـن حميها محنته ، وأن يحنن عليه قلـب الحكومة ، فترفع عنه الحكم بالموت •• وتجبرنا ، أنا وأختي ، أن نشـترك معها ، في هذه الصلاة الفضولية •• غير آبهة ، بأن عمتي لا تريد هذه الصلاة، وأن «داؤد» نفسه ، ما كان ليرتضيها ، ما دام ، قد اختار هو بنفسـه ، قبول الموت ، من أجل يكون قديسا ••

افكانت أمي ، لوعاشت ، في عصر « يعقوب المقطع » مثلا ، سـتصلي ، الصلاة نفسها ، من أجل أن ينقذ الله (يعقوب) ذاك ، وتحرمه ، مـن أن يقطع جلادوه جسده ، فلا يعود ثمة بعد هذا من يعرفه ، ويصلي له •• بل لن يعود ثمة من يسـميه بلقبه العجيـب « يعقوب المقطع » ؟•• لكـان (يعقوب) ••

شكاها .. وغضب عليها .. وعاقبها بسبب هذا الفضول الذي لا مبرر له .. ولا قلب ..

بل تصلي يوميا ..

وتجبرنا على الصلاة معها ، متهمة ايانا بالعقوق ، وقسوة القلب ، ان نحن تهاونا .. فأروح انصاع لها ، وفي روحي صلاة مغايرة ، ارفعها الى الله مناشدا اياه ، بقوة ولعي ، أن لا يستجيب ، سبحانه ، هذه المرة حسب لصلاة أمي ، ما دام قد عودها ، من قبل ، على أن يستجيب ، فيلبي لها كل الدعوات التي تدعوها ، وتطلب فيها منه ، أمرا لا يعنيها ، ولا مصلحة لها فيه ..

والا .. لكان استجاب لها مثلا ، وهي تدعو اليه ، وتصلي ، بحرارة يقينها ، أن يفتح على أبي باب رزقه ، أو أن انجح في الامتحان ، تلك السنة ، التي رسبت فيها ، واعدت الدراسة ، في الصف الثاني المتوسط .. أو ..

بل .. سيستجيب لها ..

فبعد بضعة شهور ، وكانت عمتي الحولاء ، قد فارقت الحياة ، خفف الحكم على «داؤد» من الاعدام الى الاشغال الشاقة المؤبدة ..

الله .. لشد ما ساءني ذلك ..

كنت اتطلع الى اهلي وهم يعلنون عن سعادتهم ، بهذا النبأ الذي جاءهم من بغداد توا .. واسمع الناس يزفون لهم التهاني .. وأنا حائر للطريقة التي ينظرون بها الى هذا الامر ، ويفهمونه .. وأود لو اسألهم ، علام ، كل هذا الفرح ؟ اهي مهزلة اذن ، أن نريد القديسين والشهداء ، ونولع بهم ، ثم حين يكادون يحصلون على شهادتهم وقداستهم ، نأتي نحن ، وبدون مبرر ، فنتدخل ، ونصلي الى الله ، أن يحول دون ذلك ؟..

وكنت اناقش الامر مع نفسي بمرارة ، متسائلا ، كيف سيمكن اذا استمر الامر على هذا المنوال أن يكون لنا في هذا الزمان ، شهداء وقديسون ، نحن جميعا ، وأنا بشكل خاص ، بامس الحاجة اليهم ؟.



وكان غضبي يغذي أفكاري ، فأروح اتساءل ، مثلا ، ماذا لو أن العذراء القديسة ، أم المسيح ، تدخلت في موت ابنها على الصليب ، وصلت الى الله سبحانه ، أن ينقذ لها وحيدها من الموت .. افكان يمكن عند ذاك أن يصير المسيح مسيحا ..

ولقد فكرت مليا بـ «داؤد» ابن عمي بعد هذا ، وتساءلت عما سيكون عليه موقفه ، بعد أن تنازلت ، الحكومة عن اعدامه ؟.. ترى الم يحنقه ذلك ، ألم يسبب له خيبة أمل ، تملأ له روحه بالمرارة ؟. هل سكت على تلكم الاهانة؟ هل احتج ، احتجاجه في المحكمة على محاميه ، الذي اراد ان يقنع المحكمة بأن موكله بريء من المعتقد الذي اتهم به ؟..

وأقول الحق ، أنه صغر في نظري .. فلم اكن مخيرا ، في أن اقارن بينه ، وبين صاحبه (يوسف) الذي حكمت عليه المحكمة بالاعدام ، للسبب نفسه ، ثم نفذت الحكم فيه ..

أجل .. هكذا يكون القديسون .. أما أن تأتي الحكومة ، وتخفف الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، عن ابن عمي ، ولا تخففه عن ذاك الغريب الذي لا اعرفه والذي اسمه «يوسف» فانه لامر ، يدعو للريبة ، ويبعث على خيبة الامل ..

أجل .. كنت اريد لانسان اعرفه ، ولرجل هو من عائلتنا . مثل (داود) ابن عمي أن يبقى في ذهني ، على الصورة ، التي استطعت أن ارسمه بها .. قريب الشبه «بيعقوب» المقطع و «بطرس» الذي صلبوه بالمقلوب : رأسه الى الاسفل وقدماه الى الاعلى .. بناء على طلبه !!

في تلك الليلة ، بعد امسية طويلة ، كان فيها بيتنا ممتلئا بالمهنئين ، اويت الى فراشي مضطربا .. كنت بحاجة ، الى أن اعيد ترتيب اجزاء الصورة التي اهتزت في مخيلتي ، محاولا جهدي ، أن ابعد عنها ، صورة (يوسف) الذي علقوه على المشنقة ، حذر أن اسقط في أي قدر من الرغبة في المقارنة ..



كان من مصلحتي ، أن ادافع عن صورة «داؤد» التي في ذهني •• فرحت استنجد لها بكل ما أملك من طاقة على التذكر •• تمثلت وجه ابن عمي ، الذي لم اكن حينذاك قد رأيته الا مرة واحدة قبل بضع سنين ، حين ذهبت الى بغداد مع أبي لاتمام خطوبة أخي •• آنذاك التقيت «داؤد» للمرة الاولى •• كما التقيت كل اولاد عمي ••

لم يكن في هيأة ابن عمي ذاك ما يميزه ، ويجعلني احدس أنه مؤهل لان يتحول الى قديس ••

كان انسانا نحيلا ، شاحبا قليل الوسامة ، قصير القامة ، أقرب شبها الى ممثل كوميدي ، منه الى قديس •• ولقد بدا لي ما يقوله ، وما يرد عليه من اسئلة تعترضه ، آنذاك ، أقرب معنى الى الدعابة ، بسبب الغرابة التي تتصف بها اراؤه ، والطريقة التي يعبر بها عن افكاره ••

ولقد شددت اليه ، ليس اعجابا •• بل لطغيان ما في شخصيته من جدة ، لا يسهل استيعابها ، بحيث تأكدت منذ البداية ، أنه لا يشبه الاخرين •• وانما يشبه شخصية ، في ذاكرتي ، لبطل قصة منسية ، فانا لا أكاد اتبين احداثها وملامحها •• بل مجرد ملامح ، لن تلبث ، بقليل من الجهد ، ان تتوضح ، بعد حين •• ولعل ابرز علامة في تلك الملامح ، الشاربان الكبيران الاسودان اللذان يتوجان شفتيه ، ويملآن وجهه الصغير •

لقد انطبع تأثير هذين الشاربين على الملامح ، في روحي ، واستقل ، مثل اشارة الى نوع من الناس ، ساعرف كيف اميزهم ، عن سواهم بعد سنوات ، بل •• ساحرص بعد سنوات أخرى ، على أن يكون لي مثلهما •• ولن أفلح ••

والان •• أنا مستلق فوق سريري ، وصورة ابن عمي المهزوزة ، تلح على خواطري ، وتسلبني القدرة على النوم •• وعن كثب ، الى اليسار قليلا ، اعرف ان هناك ملامح اخرى لـ (يوسف) ذاك المعلق فوق مشنقته ••



أي قلق •• وأي عذاب ••

فانا لم يسبق لي قط ان رأيت مشنقة •• ولم يتح لي أن أرى انسانا وهو يشنق •• ولم يخطر لي قط أن اتخيل نفسي معلقا في مشنقة •• ولهذا حاولت أن اخترع لنفسي مشنقة خاصة بي •• وحين اكتملت الصورة ، بدا لي الامر ، وقد صنعته على هواي ، جميلا ، يستحق أن يموت الانسان من أجله •• وأن يموت سعيدا •• وحين وصلت بي أفكاري وخيالاتي الى هذا الحد ، كرهت ابن عمي •• لانني لم استطع ان أفهم الاغراء الـذي يحول دون التشـبث بموت ، كهذا الذي اقترحته افكاري عليه ••

يموت •• ولم لا ؟

يفعل ذلك ، بالطريقة الساخرة نفسها ، التي اعتاد أن يفعل كل شـيء ، فلا يملك الذين يحضرون موته ، من الاعجاب ، بالاسـلوب الفكه ، الـذي استطاع ، أن يستقبل به الموت • وعند ذاك ، يغدو موته ، ويغدو هو بموته ، مميزا ، لا يشبه أحدا ، ولا يشبهه أحد ممن سبقوه •• كنت ، اقلب في ذهني كل هذه الافكار عندمـا أخذني النوم ، وفي حلمي حاصرتني كوابيس ثقيلة ، اختلط فيها جسد المسيح ، بجسد «يوسف» الذي شنقته الحكومة ، في احدى ساحات بغداد ، بجسد ابن عمي ، فما عدت اميز بينها •• وبدالي أن محكمة رهيبة تقام ، وأن «بيلاطس» ذاك الذي خاف من الحكم بالموت على « يسوع الناصري » يجلس على دكة رومانية عالية •• وأن «الامير» • يلقي موعظـة الجمعة العظيمة ، أمام الوزراء والنواب والاعيان ، وسـمعت صوته ، وهو يستعير مقاطع من دفاع (هوراس) الكبير عن ابنه امـام الملك (توللس) ، ثم يلتفت الى روما ، ويناشدها بمرارة « تكلمي روما ، وعيّني لنا المكان الـذي تختارينه لاعـدام البطل •• » وخيل لي أن صوت الامير عند هـذا المقطـع الحزين ، يتهدج ، وأن همهمة تتصاعد من الجموع الحاشدة •• ثم بدا لي ان شماسا • يصيح من بين الجمع ، بصوت رهيب « اين شـوكتك يا موت ••

واين غلبتك يا جحيم ؟») •• وعلى التو ظهر «داؤد» ابن عمي على المذبح ، وتقدم ثلاثة قسس وراحوا يضعون بايد مرتعشة على رأسه تاجا من خشب •• واستيقظت من حلمي ••

وكان ينبغي أن تمضي بضعة أيام ، وبضعة شهور ، لكي تهدأ في روحي خيبة الامل ، واروض ذهني على قبول حقيقة ، أن «داؤد» أجل ، لسبب خارج عن ارادته ، مشروعه ، من أجل أن يكون قديسا كاملا •• وان كل ما يتوجب علي •• وعلينا ، نحن المؤمنين به ، هو أن ننتظر •• فالحكم على انسان ، بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ليس أمرا هينا ، على أية حال •• يكفي التفكير ، بانصاف في كلمة (المؤبدة) هذه •• ثم يكفي أن يتخيل المرء ، ما تعنيه الاشغال الشاقة •• ثم الاشغال الشاقة المؤبدة ••

وقالت لي خواطري : هذا أمر يمكن أن يكون أشد من الموت •• وأن الافا من القديسين ، يمكن أن يولدوا ، في سجن ، كهذا الذي اودعوا فيه ابن عمي •• فعلام كل هذا القدر من الاستهانة بالاشغال الشاقة المؤبدة ؟

ارتفعت معنوياتي ••

ورحت أرمم احاسيسي •• واجربها ، بان احكي لبعض اصدقائي ، مباهيا بـ «داؤد» السجين •• وبالجريدة التي كان يصدرها ، وبصورة المطبعة التي نشرتها الصحف ، وبالحزب الذي كان يديره ، متخفيا وراء اسم (أمين)•• ثم بتلك (الاوكار) التي ورد ذكرها في المحكمة •• والنشرات التي كانت توزع ليلا •• والكلام الذي تنطوي عليه (ضد الحكومة) و (ضد الانكليز) و (ضد الاغنياء) من أجل الفقراء ••

يا لكل تلك المفردات ••

كل شيء موشح بالغموض والاسرار •• المطابع سرية •• والاسماء •• والنشرات •• والبيوت •• والناس •• فكأنك تعيش رواية بوليسية ، بطلها



(قديس) •• يعمل من أجل الفقراء ضد الاغنياء ، مخترعا من أجل ذلك شيئا اسمه (الحزب) •

ما الحـزب ؟

كان ما نشر من وقائع محاكمات «داؤد» في الصحف ، لا يكفي لارواء فضولي •• بل كان على العكس ، يستثير هذا الفضول ويغذيه بمفردات جديدة وغريبة •• تتوزع كلها على جانبين ، احدهما يحتله الحزب ، باسراره، وخفاياه •• والثاني تتربص فيه الحكومة و (الشعبة الخاصة) •• والشرطة السرية ، والوكلاء ، الذين ينبثون ، في كل مكان ، ويتسمعون الى همس الناس ويتفرسون في وجوههم ، ويتأثرون خطاهم ، حيثما توجهوا ••

اي عالم غريب ••

أن تكون مراقبا •• تتبعك عيون مبهمة حيث درجت ، وتتفحصك وترتاب بك ، وتتهمك ، وتحاول جاهدة الايقاع بك ، والكشف عن خفاياك ، وأنت معتصم بالغموض ، مموه بالسذاجة أو البراءة ، أو حتى بالخبث ، بل ربما ، احيانا ، بالرأفة ، على هذا الذي لا يفتأ يسير وراءك يحاول اكتشاف ما لا حاجة لاكتشافه ، وفضح اسرار غير موجودة أصلا ••

أو ان تراقب أنت الاخرين ، مستخدما فضولك ، وريبتك ، وفطنتك ، وفراستك ، في أن تنتقي من تراقبه ، وتخطط لكشفه ، وفضح اسراره ، فأنت مشغول به دائما •• معني بأن تستدرجه للفضيحة ، حريص على أن لا ينتبه لك ، مملوء بالشراهة واللهفة من أجل الايقاع به ••

أي المهمتين اصعب ؟•

ايهما الذ •• وأدعى للمتعة ؟••

واروح اصغي الى ايقاع رغباتي وتوتر حاجتي الى ما يملأ خيالي حتى لأكاد اسمع دقات قلبي ، حين يبلغ الحلم احدى ذرواته ، فاذا أنا عند ذاك في أحد الاوكار •• واذا الوكر محاصر تماما بالشرطة السريين ، والاصوات تنادي:

ــ سلم نفسك •• أنت محاصر ••

واروح اتلفت حوالي ، مستعينا ، بكل ما عند روايات الجيب ، وأرسين لوبين ، من حيل ، كانت قريحته تتفتح بها لدى مواقف كهذه •• فاذا اعجزني ذلك ، وجدتني ، في صدق احساسي بالقداسة ، مضطرا الى الصلاة والى تلك الصلاة المجربة التي علمتنيها أمي ، والتي اوصتني ، أن اتلوها ، كلما ضاقت بي السبل ، مناشدا الام القديسة •

« تحت ذيل حمايتك •••
التجيء اليك •••
اينتها العذراء القديسة ، مريم
فلا تغفلي عن طلباتي ، عند الضرورات ••
لكن نجيني على الدوام من جميع المخاطرات •• » •

واروح أنتظر النجاة •• فاذا خذلني خيالي ، ولم يستجيب لي ذاك القديس القديم « ارسين لوبين » او اذا امتنعت القديسة مريم ، لاسباب عديدة ، عن أن تنجيني ، وأنا في محنتي ، وحوصرت ، بحيث لا خلاص ••• عند ذاك ، كنت الوذ باستسلامي الوسيم ، حانقا على نفسي ، أن تكون خائفة من المصير الذي سبقني اليه « يعقوب المقطع » و « الربان هرمز » و « والشهيد برصباعي » ••• فاخرج لاعدائي مزينا بطاقتي على التحدي ••
ــ ها أنذا •• فافعلوا ما تشاؤون ••

وعند ذاك ، أجدني وقد تقمصت شخصية «داؤد» ابن عمي ، فأنا محصن ، مقدما ، بالسخرية والمرارة •• وسابرز ، وعلى فمي نصف ابتسامة مرسومة بعناية •• هكذا :

أقف عند باب الوكر ، ويدي على خاصرتي •• وستمضي لحظات من الصمت ، لابد منها ، يكون فيها المخبرون وكل اولئك الرجال السريين ، مذهولين ، يتطلعون الي غير مصدقين •• وساطوف بعيني ، خلال ذاك عليهم جميعا ، والمتعة واللذة ، ترتعدان في كياني ، من مجرد ، تصور اللحظات التي



ستعتب ، كل هذا الانسجام الصامت •• حتى تقع احدى عيني على انسان اعرفه ، يقف عن كثب ، متخفيا ، حذر أن اراه ••

الخائن !••

أجل ، ففي موقف كهذا ، لابد من الخيانة • انها التبرير الفسيولوجي ، لحالة المرض الذي نصاب به ، واللذة التي تسبق الاستسلام ، وتغري به ••

لقد عرفت هذا ابتداء من خيانة يهوذا ، يوم ، ذهب الى اليهود ، واتفق معهم ، على أن يسلمهم ، ذاك الناصري ، وتقاضى ، من أجل خيانته تلك ، ثلاثين قطعة من الفضة ، كما يقول الانجيل ••

ذاك أننا ، ما دمنا سريين الى هذا الحد ، محتاجون أبدا ، الى أحد يخوننا •• حاجة المسيح الى يهوذا ••• لاننا يمكن ببساطة ، أن نفترض ، فداحة ما كان يمكن أن يحدث ، لو أن يهوذا ، لسبب ما ، لم يبع المسيح ، ويقود اليه اليهود ، تلك الامسية الكئيبة ••

أكان يهوذا ، كما يصوره لنا الانجيل •• حاقدا ، أم مجرما ، أم تافها أم شرها •• أ غيورا ••

هل كان بليدا ••

لا •• لن يكفي كل ذلك ، من أجل اختراع حالة اسمها الخيانة •• اهي الضرورة اذن ؟••

لقد بقيت سنوات مراهقتي اخاف التفكير بوضوح في معضلة كهذه ، وكنت أشعر بالرعب ، حين يقودني المنطق ، الى ترتيب الاحداث ، وفق سياقها الذي تقدمه لنا الكتب المقدسة ••

فالمسيح ، كان يعرف مقدما ، ومنذ « العشاء السري » أيضا •• ان يهوذا سيقوم من هذا العشاء ، ويذهب ، فيبيع سيده لليهود •• ولقد كان ممكنا بقليل من الحكمة ، أو قليل من المحبة ، أو حتى بقليل من التسامح ، أن يحول يسوع دون ذلك ••

فلماذا لم يفعل ؟



الله لشد ما عذبني هذا السؤال •• لانني ، وأنا أتقمص للمرة الالف ، دور يسوع ، وللمرة العاشرة دور ابن عمي «داؤد» القديس •• لم استطع أن ادرك السبب في كل تلك القسوة ، التي تجعلنا نتساهل ، في السماح لخائن أن يكون خائنا ••

بلى •• ينبغي لذاك الكثير من الصبر ••
ينبغي الكثير من القدرة على الفهم والتفاهم •• على الصداقة •• على الحزم ••

ولكن ذاك ، على ما فيه من رهافة ، يمكن ان يكون ضد التاريخ •• وبقليل من النزاهة يمكن أن نكتشف ان التاريخ ، أبدا ، هو كتابنا المقدس •• هل كنت مؤهلا حينذاك ، لاكتشاف ما في ذلك من مراوغة ؟•• لا •• بل كنت احدسه •• وكان هذا الحدس يكفيني ، حتى لقد جعلني أحيانا ، ولعوامل عديدة ، أقبل التجديف ••

ولعل اكثر ما كان يثير حنقي ، في تأمل هذا التاريخ •• هو تلك الفدية التي حاول الرواة ان يتذرعوا بها ، من أجل التمويه •• حين ادعوا أن يهوذا الخائن ، انما باع سيده من أجل ثلاثين قطعة من الفضة ••
لم تقنعني هذه الوشاية أبدا ••

ولن تقنعني •• انما صبرا ، ريثما يتقدم بي السن ، واخرج من مجرد احلامي ، وانا بثياب المراهقة ، الى الحياة ، وابحث عن حزب انتمي اليه ، وحالة سرية أعيشها ، وساعة ضيق تناسبني ، اكتشف في وهلة منها ضرورة الخائن والقديس على حد سواء ، ومحنة علاقتهما الملتبسة •

أما الان فانا مجرد مفتون بالحياة ، احاول أن أنفذ اليها ، مستعينا بقلة خبرتي ، وفجاجة معرفتي ، وبمحض ثقتي بنفسي ••

وما الحياة آنذاك ، الا كشف الاسرار •• دفعة واحدة •• أو سرا بعد



سر .. فكيف اذا اسلمك سر ، وأنت تحاول كشفه بكل ما تملكه من شراهة ، الى سر أشد وأكثر طغيانا ..

اكثر الاولاد سرية في المحلة ، كان « طلال » ابن مخمن الضريبة ... واول علامات ذلك طوله المفرط ، وانفه الذي قضمته منذ وقت مبكر « حبة بغداد » ... وطلال منذ عرفناه ، كان يملك في سطح دارهم غرفة سرية من الصفيح ، فيها عدد ومساحيق وسوائل غريبة ، وملابس ، واقنعة ... وحيوانات محنطة ... وميزان قديم ..

شيء عجيب ..

والاعجب ان (طلال) هذا ، ما كان يسمح الا نادرا لولد منا ، ان يدخل مملكته هذه ... فاذا دخلها ، استحلفه مقدما ، ان يكتم عن الاخرين ، ما رآه ..

انه ليهمس لاحدنا بخطورة . وهو يتطلع في عينيه :

ــ احلف ...

ويحلف الولد . لو لا ان طلال ، يعترضه :

ــ لا ... ما هكذا ؟

ــ كيف اذن ؟

ــ ضع يدك على هذا الكتاب ، وانت تحلف

ــ الكتاب ؟

واتطلع الى الكتاب الكبير ، بغلافه المصنوع من جلد غريب :

ــ اي كتاب هذا ؟ اهو الانجيل ؟

ــ احلف .. أنت . ما عليك ..

واطيعه .فيأخذ بيدي ، ويشد على اصابعي بكفه المتعرقة ، ويقودني الى الخربة المجاورة لبيتهم الكبير ، ويتوقف بي ، امام فتحة نافذة قديمة ...

ــ انظـر ...

يقول لي . فانظر الى الفتحة ، واصغي :

ــ انت ترى هناك قطعة من طباشير حمراء .. اليس كذلك ؟ هل رأيتها ؟

ــ اجل ...

ــ حسناً .. حين ترى الى جانب قطعة الطباشير هذه قطعة اخرى بيضاء . فذاك يعني انك قد قبلت في الحزب .. تعال عندئذ ... ودق على الباب ...

ــ .. الحزب ؟



ـ اجل..وماذا كنت تتوقع اذن ؟ ...

ويأكلني احساس غامر بالغموض ، فلا أكاد استطيع ان أستفسر منه عن أي شيء ، مكتفيا باللذة ، التي أعطاها لي . فهو دواء من فضول ، كفيل بأن يملأ عطلة صيفية بأسرها ... واروح الى البيت ، فلا أكاد استقر فيه ، حتى اذا جاءت الظهيرة ،وخلا الحي من الناس ، تسللت الى الخربة ، وبلهفة تطلعت باحثا عن مفاجأتي ، وزدت فمددت اصابعي ، وفجأة انتفضت ..

ـ ماذا تفعل ؟

صعقت .. بدالي كأن الصوت الذي سمعته ، انما كان صادرا عن الفتحة نفسها ، او عن مكان مبهم من ضميري ، ورحت اتلفت حولي ، لاكتشف « طلال » الذي كان يراقبني من كوة في سطح بيتهم ... وارى عينيه المليئتين بالاحتقار وهما تصدران قرارا ، بطردي م نالحزب الذي لم اكد انتمي اليه ..

وامتلأ العالم بالقديسين ..

كل يوم ، كنا نسمع اخبارا جديدة ، عن اناس نعرفهم القت عليهم الشرطة السرية القبض في ساعة متأخرة من الليل ، فاذا اصبح الصباح ، سرى في المحلة احساس بالخوف والغرابة والنوتر ، تعبر عنه عيون محمرة من الكتمان وايماءات مقتصدة وجمل مبتورة ، وشحوب ، غير مخفي بعناية .. فاذا اطمأنت جارة لجارتها ، بعد أن تذرعت بانها جاءت تستدين خميرة للعجين ، حكت لها ، كيف انها استيقظت ، على اصوات مبهمة ، وايقظت زوجها ، فانتهرها على فضولها .. ولكنها ما استطاعت ان تقاوم .. فتلصصت الى سطح الدار ، وهناك ، رأت السيارة السوداء ، وسمعت صوت أم منذر وهي تبكي.. وصوت الرجال وهم يهمسون ..

ـ وأخذوه ؟..

ـ أخذوه ..

ـ رأيته ؟..

ـ لا ما رأيته .. كانوا قد وضعوه في السيارة .. ولكني رأيت زوجته تبكي وأروح استعيد ملامح «منذر» الموظف في محطة القطار .. واتساءل ، ترى



كيف كان يستطيع هؤلاء ، أن يخفوا كل ما ينطوون عليه من طاقة على القدامة ، بحيث لم يخطر لاي من أهل المحلة أن (فلانا) مثلا أو (فلانا) ، ممن القي القبض عليهم ، يمكن ان يكون منتميا ..

أبدا .. ما كان يبدو عليهم ، أيما علامة تشي ، بما هم فيه .. كانوا رجالا ، على قدر كبير من الهدوء ، والرصانة .. يتحدث احدهم بهدوء ، ويتصرف بلطف ، فلا يكاد أحد يحس بوجوده .. وهم في الغالب اناس محترمون ومحبوبون ، لم يؤذوا أحدا ، أو يختصموا مع أحد .. بل لعل أحدا من أهل المحلة لم يكد يسمعهم مرة ، يقولون كلاما ، يشم منه ، أنهم ضد الحكومة ..

ـ من كان يصدق ؟

تقولها امرأة « عبدالغني جلبي » ، وتقلب شفتيها مستطردة :

ـ خليل ابن الخياطة .. ضد الحكومة .. ويوزع ضدها المناشير .. ابن الخياطة !!

وتهز النساء من حولها رؤوسهن ، بحقد مكتوم ، وينفرطن معتذرات ، بان الطعام سيحترق على النار .. ويهبط المساء .. وتتساءل أمي :

ـ ترى على من سيلقون القبض هذه الليلة ؟..

وينتابني شيء من الخوف ، بعد أن روضت نفسي ، أياما صعبة ، على قبول فكرة ، أنهم ذات ليلة ، سيدقون علينا الباب ، ويلقون القبض علي أنا بالذات .. ولم لا ؟ فانا أيضا ، مثل «داؤد» ابن عمي ، ضد الحكومة .. ضدها .. وضد الانكليز .. رغم ان احدا لو سألني تلك الامسية ، عن السبب الذي يجعلني اكون ضد الحكومة أو ضد الانكليز ، لما وجدت جوابا.. لم يكن الجواب ، في تلك الامسية مهما .. فالمهم ، والمخيف ، في آن واحد ، أن أحدا ، يوشك أن يشي بي ، ولعله «طلال» ابن مخمن الضريبة .. ذلك الولد المرقط ، الذي بقيت ، لعدة شهور ، أحلم بأن يلقى القبض عليه ، لا لسبب ، الا لكي يشي بي ، ويقول لهم أنني ، دخلت غرفته السرية ، وكدت

انتمي للحـــزب ..

ما وشى «طلال» بي .. ولاهم ألقوا القبض عليه .. وقد احنقني ذلك، بحيث وجدتني ذات يوم ، أذهب اليه ..

ولن أنســى ..

كان الوقت ظهرا .. وقد قرعت الباب ثلاث مرات .. فخرجت الخادمة الكردية ، وقالت لي ان «طلال» يتناول طعام الغداء مع أبيه وأمه .. فما زدت على أن قلت لها أنني اريده لأمــر خطير .. وأنني لذلك ، يمكن ان انتظره ، حتى ينتهي من تناول طعام الغداء .. نظرت الخادمــة الكردية ، الي باحتقار واضح ، ودخلت .. فوقفت لدى الباب ذليلا ، ارتــب حقدا ، ولد فجأة في روحي على «طلال» المرقط مثل أفعى ، وخادمته التي لها ملامح دجاجة ..

مضت بضع دقائق ، ثم فتح الباب فجأة ، ورأيت امامي ، «طلال» ابن مخمن الضريبة . كان في تلك اللحظة قد ازداد طولا . وسألني مباشرة :

ـ مــاذا تريــد ؟

كدت أضعف امام طول هذا الولد الخارق ، ونبرته العدوانية ، ولكنني استنجدت بعنجهيتي : فقلت له ، بقوة ووضوح :

ـ الامر خطير .. وعلينا أن نبحث الامر ..

ـ عماذا تتحدث ؟..

قالها بضجر . فأجبته مباشرة :

ـ عن الحـــزب

حدق بي ، وسألني بكسل :

ـ الحزب ؟.. أي حزب ..

ـ قطعة الطباشير .. هل نسيت ؟..

ـ أمجنون أنت ؟

قالها .. واغلق الباب . وتركني من جديد في ذلة لا أريدها .

ولهذا صممت ، أن اشي به ، حين يعتقلونني !!



الفصل السابع

اللعب




مكتبة
الفكر الجديد

ذلك « الثالث المتوسط » الذي آواني ، وأنا في زهو مراهقتي ، وكان رحيما بي .. بعد عناء ..

الثالث المتوسط .. الذي ، كان من البراعة ، بحيث اوتي القـدرة على ان يشفيني من « حب الشباب » ..

الم اكن في الخامسة عشرة من عمري ؟..

اكبر قليلا .. أو اصغر قليلا ..

اكتمل شعر وجهي .. ونما شـارباي ، فانا احلق وجهـي على غفلة من اهلي .. واروح بعد ذلك أدهنه بعطر ، اشتريته في العيد من « سوق السراي » حاد .. وحارق .. ثم بعد كل ذلك ، أشم رائحة نفسي ..

رائحة «الثالث المتوسط » .. والرحلة الخشبية التي قرب النافذة .. والحبر .. والاصباغ .. والطباشير .. والزناخة النفاذة التي تفوح من تحت ابطي ذلك الطالب القروي .. والفضائح الناقصة .. وما ينبغي ان يعرفه كل فتى .. وما اعرفه وحدي وانطوي عليه .. وما انا موشك ان اعرفه بعد قليل..

يا منية النفس ما نفسـي بناجية   وقد عصـفت بها نأيا وهجرانـا
أضنيت أسـوان ما ترقى مدامعه   وهجت فوق حشايا السهد حيرانا

قصيدة مكتوبة بخط صبية ما تزال في « الاول المتوسط » .. قصيدة خبأتها بين اسراري ، وأنا لا اكاد أفهم ما تقول .. ومع هـذا فانا احدسه ، وانفعل به أيما انفعال ..

« الثالث المتوسط » •• صديقي • الذي حاول ان يعيد الي ثقتي وحملني مثل طائر سعيد ، عبر كل البحار الصعبة ، والجبال المدوخة •• والمضايق •• وطمنني من خوف ••

كان معي حين مات أبي •• ورافقني حتى حافة القبر •• ثم عدنا معا وأنا البس قميص اليتم تياها بما حل بي •• وأنا في الخامسة عشرة من عمري•• اصغر •• او اكبر بقليل ••

وقد رافقني ، يوما ، يحمل عني حقائب الشك والخوف ، والحزن ، وجلس الى جانبي ، وعلمني كيف ، احتمل الدروس ، ثم ، بعد شهر ، كيف اقبلها •• وزاد فاقنعني أن اجرب محبتها ••

بدأ — يا للغرابة — في درس الفيزياء فصار مدرسا •• شابا •• انيقا •• ذكيا •• مرحا •• حازما •• يعرفني •• ويناديني باسمي ، ويجيب على اسئلتي ، ويشجعني •• و ••

جاء رجال سريون ، وأخذوه أمام عيون طلبته ، فسار معهم ، وحوله يتحرك الحزم نفسه ، والذكاء ، والمرح •• واللباقة ، فوق ذلك ، وشيء من الحزن •• بدا لي انه خصني به وحدي ، حين التقت عيناي بعينيه ••

ذاك « الثالث المتوسط » •

استاذي •• ومعلمي •• يوم كنت في الخامسة عشرة من عمري ، اتمرن على ضغط ابيات من الشعر ، كانت تحرق لي خيالي ••

هي المواطن أدنيها وتقصيني   مثل الحوادث ابلوها فتبليني

واتطلع الى صورة «الرصافي» المعلقة في الغرفة الكبيرة من بيتنا ، والى عمي الامير ، وقد وقف مزهوا ، بجنب الشاعر وتتداخل اصوات الصلوات باناشيد وهمية لسجناء لا أعرفهم ، يشبهون جميعا مدرس الفيزياء •• وذاك النبي داود •• الذي لن يلبث ان يخيب لي آمالي •• فلا يصعد المشنقة ••

يا لذاك « الثالث المتوسط » ••



كان الناس في الشوارع يهتفون ضد الانكليز •• وكان ثمة رجال يحملهم الناس على اكتافهم •• وما كنت أدري أنها «الوثبة» •• ولا أن الرصاص سينهمر بعد قليل فيفر الناس •• ويصيبهم الذعر ••

لماذا ؟

لم يكن سؤالي موجها للذين اطلقوا الرصاص ، من تلك السيارة المكشوفة التي تحمل رشاشة كبيرة •• بل الى الناس •• ما كنت اريدهم أن يهربوا •• فالادوار في روحي كانت موزعة •• وكنت أجد المنطق ، كل المنطق •• ان تطلق الشرطة الرصاص •• فيثبت الناس •• ويموتون •• شرط ان انجو ، أنا ، على الاقل ، لانني مازلت صغيرا ثم لكي اكون شاهدا ، بعد كل هذا ••

ثالث متوسط ••

حاشد •• وحبيب •• ويتيم

وأنا منذ بداية العام اتذوق حرية ان لا يكون لي أب ، مثل سائر الاولاد وأتدبر معنى حرمان مبهم ، تحاول أمي ان توحي لي به ، فتنجح لوهلة وتفشل لوهلات ••

أي حرمان ؟••

انني اكتب انشاءات تعجب مدرس اللغة العربية ، فيعطيني رغم أنفه ، أعلى الدرجات ••

وأنا اليوم ــ يا للفخر ــ رئيس لجنة الرسم ، في جيبي مفتاح المرسم ، مريب وهو يتطلع الى اللوحة الجديدة التي رسمتها •

ومدرس الرسم ، لم يعد ثقيل الظل •• وتخلى كأنما بتأثير مناخ مبهم ، عن صرامته فهو يبتسم لي مرة كل شهر أو مرتين •• ويهز راسه باقتصاد ومفتاح تلك الخزانة المدللة ، التي تنطوي على الاصباغ السرية ، واقلام التلوين ••



كنت في الخامسة عشرة ..

يعرفني المدير .. والمدرسون .. والطلبة .. وعندي ثقة وطيدة ، أنني لن أرسـب بعـد اليوم ..

ولن أرسـب ..

سأظل انجح .. حتى يخطر لي أحيانا ، أن مـن الطرافة ، أو العـدل ، ان اشـتاق الى الرسـوب ..

كان « محمد » يكره درس اللغة الفرنسية .. ربما لم يكن يكرهه تماما ، ولكنه لسبب ما ، ظل مجهولا..قرر الا يدخل درس اللغة الفرنسية،الامر الذي اغضب «مدام البصير» مدرسة اللغة الفرنسية في قسم اللغة العربية،بدار المعلمين العالية ، ثم لم يلبث غضبها ان تحول الى حيرة .. ف « محمد » كما اخبرهـا الجميع،شاب نابه ، وذكي وحريص ، وليس عدلا ان ينال « الصفر » الذي اعطته مرة في الامتحان ،لانه اعطاها الدفتر ابيض ..

استدعته ..

ـ لماذا لا تداوم في درس اللغة الفرنسية ؟

قال محمد بأدب :

ـ لانني لا اريد ذلك

ـ حسناً .. ولكن لمـاذا ؟ الا تعجبك اللغة الفرنسية ؟

ـ الا ...

ـ للاسبب ..

ـ وترسب ؟

سكت « محمد » فتشجعت « مدام البصير » :

ـ بلى ..

ـ لماذا .. لمـاذا اذن ؟

وقد فهم ما يدور بذهنها ان الامر لا علاقة له بها قط ..

قالتها وقد احمر وجهها ، واضطربت لكنتها ، وهي تجهد لان تتحـدث العربية ..

خجلت ان تسأله ان كان يمتنع عن الدوام بسببها ، ولكنه ، اوضح لها ،

ـ ان لم تداوم .. فسترسب طبعا ..



ابتسم الشاب . للسيدة الفرنسية ، وفتح لها يديه ، كان يريد ان يقول لها .. ماذا بوسعي ان افعل ؟

وكادت الدموع تطفر من عيني مدرسة اللغة الفرنسية ، وراحت تردد بلغتها الخاصة :

ـ ليس ذلك عدلا .. ليس ذلك عدلا ..

ثم انصرفت عن الشاب العنيد ، وهي تفكر بطريقة تداري بها حرجها وحزنها .. ولكن ذلك كله لم يجد .. جاء الامتحان العام . ورسب « محمد » باللغة الفرنسية .. وكان سعيدا جدا ، بقدر ما كانت مدام البصير حزينة القلب والفكر والضمير ..

ليس النجاح في الامتحانات صعبا .. لقد اكتشفت ذلك ، على مهل ، بعد رسوبي تلك السنة في الصف الثاني المتوسط .. تماما كما أكتشفت ان الرسوب ليس قبيحا كما كان يبدو ، لولد مثلي ، لم يجرب من قبل ، لذة الاستسلام للرسوب ..

قليل من الصبر ..

وقليل من الانتباه ..

وحاول ، مع هذا وذاك ان تكسب ثقة المدرس وأن تدخل في ذهنه منذ البداية أنك حريص ، ومجتهد ، وعاقل ، فوق هذا ، وفي الوقت نفسه ، حاول بأدق ما يمكن من الحذر والخبث ، ان تفهمه انك يمكن ان تكون مزعجا وسيئا حين تشاء ..

ثم ان لكل مدرس طريقته ..

المدرسون أولاد كبار .. انهم مثلنا نحن التلاميذ ، يمكن ان يستجيبوا للملق حينا وللابتزاز حينا ، وللطيبة احيانا .. وهم فوق ذلك ، وهذا ما سأكتشفه بعدئذ .. يخافون طلبتهم ، قدر ما يخافهم طلبتهم واكثر .. يمكن لطالب ، يتمتع بقدر ما من قسوة القلب ، أو قلة الادب ، أو سوء النية ، أن يسبب لاحد هؤلاء المدرسين ، من الاذى ما لا يستطيعه مدرس ، مطالب بان يواجه يوميا عشرات ، بل مئات الطلبة ، أحيانا ..



ما الذي يملكه مدرس أعزل في الصف ، وهو منذ صار مدرسا ، بل قبل أن يصبير قد وطن نفسه على ان يكون «مربيا» •• وما معنى أن يكون مربيا ، ان لم يجهد من أجل ان يكون صبورا ومتسامحا ، وواسع الصدر ، وأمينا •• ثم في الوقت نفسه ، وبالرغم من كل ما تقدم ، لابد له ان يكون عادلا وحازما، وحاذقـا •• والا ••

فلن تشفع له مبادىء التربية ، ان بدا لامـر ما ، وبتأثير عوامل عجيبة غالبا ، مضحكا امام طلبته أو باعثا على الشفقة أو السخرية •• يسـتطيع أي طالب ، اذا كان على قدر من الخبث ان يخترع له ما شاء له خياله من القاب ، أو مقالب • وقد يزيد الاخبث منهم ، فيخترع حتى لمجرد الدعابة قصصا ، او فضائح •• سرعان ما تشيع ويتناقلها جيل من الطلبة عن جيل ••

فكيف يدافع مدرس سيء الحظ كهذا عن نفسه •• هل يضرب طلابه ؟•• ثمة بين الطلبة من يزدهيه ان يضربه مدرسون من هذا النوع •• ثمة من يتجرأ فيرد عليه •• او يكيل له الصاع صاعين •• والويل للمدرس عند ذاك ••

سيكون كمن ، امتهن في شرفه أو كمن اصابه وباء •• وينبغي عليه اذاك، أو على المسؤولين عنه ، ان ينقلوه الى مدرسة اخرى •• بل قد انتقل بعضهم بسبب هذه «الفضيحة» الى مدينة اخرى •• وستتبعه ، بطريقة خفية الى هناك ايضا فضيحته ••

كان اسمه « حسن الدجاني » مدرس من فلسطين جاءوا به الينا ليدرسنا اللغة الانكليزية في الصف الخامس الثانوي • •

انيق ••
لبق •••
ذكي ••
قوي الشخصية • •

متمكن من موضوعه • ومادته • واسلوب تدريسه •• حريص •• حازم •• صبور متفهم ••• وكان همه الاكيد ، ان ننجح جميعا في امتحـان اللغـة الانكليزية حين نتقدم الى الامتحانات العامة ••



حسنا . كيف يمكن ان يصدق المرء ان مزايا « حسن الدجاني » هذه ، صارت كلها عند طلبة الصف الخامس الثانوي رذائل .. وبماذا نفسر ، السبب الذي جعل هذا الرجل الوقور يتحول خلال دقائق الى «مهزلة» .. تدمع لها العين
قال لنا الرجل الصادق منذ الدروس الاولى ، انه يتعين علينا ، لكي نتعلم الانكليزية ، ان نمتنع ما دمنا في الدرس ، عن التكلم باللغة العربية .
ـ لا نستطيع ..
ـ سنحاول معا .. ساعدوني .. وسترون ..
لم نساعده .. لماذا ؟.. لست ادري .. ولكنه ظل صبورا .. وظل يحاول .. استعمل اللين حينا .. والحزم حينا .. والذكاء حينا .. والامتحان حينا .. حتى جاء يوم بدا لنا . جميعا .. ان « الدجاني » هذا ما عاد يمكن احتماله ..
وقال احدنا :
ـ صبرا ...

ولن انسى الصورة ..
كان « الدجاني » يكتب على السبورة ..
وفجأة .. انقذفت من اخر الصف قطعة نقود واصطدمت بالسبورة .. تماما قرب اذن «الدجاني» الوقور .. الذي جمدت يده على السبورة .. وتأنت رويدا ، كأنها تعبر عن حالة ذهنه ، وهو يريد استيعاب ، ما جرى ..
كنا جميعا نتابع ما يجري بهلع وتلذذ .. نريد ان نعرف ما الذي سيفعله هذا «الدجاني» القوي لنقرر موقفنا منه بعدئذ ..

وماذا كان بوسعه أن يفعل ؟
لم يفعل شيئا ...
هداه ذكاؤه ، ان يستعين بالمثل القائل : « عظموا انفسكم بالتغافل » .. فعظم نفسه واستأنف الكتابة .. واذ فعل ذلك ، عاجلته قطعة نقود جديدة ، كادت تصطدم برأسه ..
وساد صمت ظالم .. سمعنا خلاله قطعة النقود وهي تقع على الارض وتتدحرج ...
وتطلعنا .. بلهفة واشفاق ... فرأينا « الدجاني » يلتفت ، ويواجهنا ..
كانت عيناه الحزينتان تملأن وجهه ، وتسيلان على كهولته الانيقة فتسلبانها قوتها . فاذا بهذا الرجل ، وهو يكاد يكون في عمر ابائنا ، يتحول ، تحت ضغط ثقل هائل ، الى مجرد ، ولد كبير ، ومكسور ..
ـ اخواني ...
قالها ، بصوت مجروح وأردف :
ـ لماذا ؟



وخيل لجميعنا انه سيبكي وشيكا . ولوهلة ، احسسنا ندامة ، على اننا كنا قساة بدون مبرر ، ثم في الوهلة التالية ، عدلنا من شكل ندامتنا استجابة لهمهمة ساخرة صدرت من مكان مبهم في الصف .. فضحكنا على غير ارادة منا .. وفي غمرة من ذلك كله رأينا « الدجاني » يحمل كتابه ويغادر الصف .. ولم نره بعد ذلك قط ..

الثالث المتوسط ..

الم يكن قريب الشبه ، بتلك الابيات من الشعر التي كتبتها لي بنت في الاول المتوسط ، على قصاصة من ورق ، خبأتها في كتاب الصلاة ، باعتبارها أجمل اسـراري ..

أبيات من شعر ، ما كنت اعرف معنى الكثير من كلماتها .. سوى أنها ابيات مـن اغنية ، ساكتشف «عبدالوهاب» يغنيها بعد بضعة أيام ، فتزيد في قلبي جمالا وغموضا :

هل تذكرين بشط النيل مجلسنا	نشكو هوانا فنفنى في شـكاوانا
تنساب في همسـات المـاء أتتنا	وتستثير شـجون النهر نجوانـا
وحولنا الليل يطـوي في غلائله	وتحت اعطافه نشوى ونشـوانا

أكانت الصبية تعي معنى القصيدة التي اختارتها ، لتكون رسالة حبهـا الصبياني الى مراهق مثلي .. ولماذا هي بالذات .. دون عشـرات الاغـاني التي كانت سـائدة آنذاك ..

بل استنسختها ، صـدفة ، من احدى كراريس الاغاني التي كانت تباع بسعر زهيد يومذاك .. استنسختها ربما ، لانها لم تفهم معناها ، أو من أجل ان تتملقني ، وقد اشتهرت يومذاك ، بانني احـب الشـعر ، وأفهمه .. أو لانـه القـدر ..

فتلك الصبية المدللة ، ما كانت تحب الشعر ، ولا كانت تفهمه ، وكانت كما سأكتشف بعدئذ ضعيفة في الدروس وبشكل خاص درس اللغة العربية.. وبشـكل أخص ، درس الانشاء .. بحيث اصبح لزاما علي ان اكتب لهـا ، كل انشـاءاتها ..



الصف الثالث .. المتوسط ..

كيف يمكن الاستطراد .. دون التورط في فضيحة .. ما دمت قد اقتربت من ذكرى تلك الصبية ، وهي الان امرأة تقارب الخمسين ، لها خمسة اولاد .. اكبرهم أنهى دراسته الجامعية منذ سنتين .

حذار ..

واكتف بحدود مبهمة .. لان التفاصيل التي تحاول ان توقظ ذاكرتك الان ، كفيلة بأن تثير شراهة شهود يمكن ان تؤذي مجرد ابتسامة يبسمونها ، هدوء سيدة ، وطنت نفسها ، كما يفعل الكثير من الناس ، على النسيان .. أو على اللامبالاة ..

انما .. كيف يمكن ان تكتفي الصورة بمجرد أبيات من الشعر ..

كيف يمكن ان تكتمل بمجرد ، الحديث عن عينين عسليتين ، وأنت في الصف الثالث المتوسط ، ورغم شدة اقترابك من الصبية ، وتحديقك في عينيها ما كنت قد اكتشفت ان عينها عسليتان وما كان يعنيك ان تكونا كذلك ..

بلى .. فلقد كنت ، وستبقى مشغولا بعينين سوداوين .. وسيهديك خيالك دائما ، الى الغفلة ، حينا ، أو الى الوهم احيانا ، بل الى السحر ، الذي يجعل عيون من تحب .. عيونا سودا ..

قل هي العطلة الصيفية ..

وهي ظهيرة .. وهو بيت من بيوت الجيران .. هل يضيرك أو يضير الصبية أن تذكر هذه التفاصيل ؟

لا .. فهي لم تكن جارتنا ..

ولم يكن قد مضى على التقائي بها وبأخيها سوى بضعة شهور .. ولم تكن منذ التقيتها قد اثارت انتباهي بسوى ذاك الدلال والمرح الصبياني الشهي .. ثم بعد هذا باللعب ..

ألم يكن الحب لعبا ؟



ألم يبدأ •• من مواضع البراءة في الحاجة الى المرح ؟ الى تفادي قسوة الدروس والامتحانات •• الى تحاشي رقابة الاهل •• الى لـذة الاكتشاف ؟ الى الصداقة •• أو ما يشبه الصداقة •• والى الواضح والمبهم ، في آن معا ••

ولقد كنا عند تلك الظهيرة نلعب •• وكانت هـي تضـحك ، بمحض احساسها بالدلال •• وبسطوة رغبتها في أن تكون سعيدة ، بعد ان انتهـت الامتحانـات ••

انها لتضحك •• وأنا اساعدها على ذلك •• بان اكون مهرجـا حينا ، وحاويا حينا •• ومراهقا ، استعين بفجاجتي ، وما تركه « حب الشـباب » في وجهي من اثر •

تضحك •• واضحك ••

الضحك هو امير اللعب •• وهو شرط صدقه وبراءته ••

كان ضحكنا المشترك يحررنا حقا •• وكنت ادرك أنها ، وهي تسبقني في سعادة ضحكها الانثوي انها اكثر حرية مني ، واوفر سـعادة •• ذلك ان جسدي بدأ منذ لحظات يضايقني •• ويأخذ من ضحكي براءته ، فأنا اراقب خبثي بحذر •• كمن يخشى ان تفضحه رائحته ••

ولقد فاحت رائحتي •• ففضحتني ••

وفي لحظة متغطرسة من ضحك الصبية ، رأيت أنفها يرتعش فعرفت أنها اكتشفتني •• وخفت •• وخجلت •• ودق قلبي •• وفي اللحظة التي فكرت بها بالهرب •• مدت الصبية شفتيها •• ولمستني ••

أجل لمسـتني ••

فعلت ذلك ، بتقصد ، وتصميم ، ومهارة •• وكنت ، تحـت شـفتيها مستسلما ومشلولا ، كما استسلمت قبل سـنوات لاصـابع تلك الخادمـة الشيطانية •• مسـتروحا رائحة كيانها ، وعطر فمها •• ووقع صـبوتها على الزغب الذي فوق شفتي ••



وفســد اللعب ••
اعطتني «جيم» قبلتي الاولى ••
ولن أنسى لها فضلها هذا ما حييت ••

انني ما زلت ، احتفظ ، وسأظل محتفظا ، بكثافة ، ورقة ذاك الاحساس على روحي وجسدي •• وسيقدر لي ، طوال سنوات حياتي كلما اســتعملت روحي للعناق ، أن ابحــث عنه ، واعيد البحــث ، بجنون ونهم وحكمة •• وتهور •• وترو •• وعبثا •• ثم اعود الى القصاصة ، واقرأ القصيدة ••

لم نعتنق والهوى يغوي جوانحنا	وكــم تعانق روحانــا وقلبانــا
نغضــي حياء ونغضــي عفة وتقى	ان الحياء ســياج الحــب مذكانا
ثم اثتنينا ، وما زال القليل لظى	والوجد محتدما والشــوق ظمآنا

كم كان عليّ أن انتظر لافهم معاني كل تلك المفــردات وكل ذاك الثقل من الحــرمان •• العفــة •• والتقى •• والحياء •• ثم الغليــل واللظى •• والوجد المحتدم •• والشوق الظمآن ••
يا للنفــاق ••

لم تكن القصيدة التي اختارتها الصبية لتعني عندها شيئا •• وما كانت لتعني عندي •• فهي لم تكن تفهمها •• ولن تفهمها •• وأنا الذي لم ألبث ان تبينت معانيها ، بعد سنوات ، لم املك سوى ان ابتسم للمفارقة ••

لكن « عبدالوهاب » يظل يعيد الاغنية •• وانني لاصــغي لها بحنان ، مستعيدا رائحة ذاك الصيف ، وملمس تلك الظهيرة •• وطعم اللعب •• وبكارة الصف الثالث المتوسط •• وطعم القبلة الاولى ••


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن

الشراهة





استسلمت لشراهتي ..

ما كنت ادري ، ان الشراهة خطيئة .. واذ اكتشفت بمحض تجربتي ، ان للشراهة عقابا .. فقد قبلت مقدما ذلك العقاب ..

وكان افظع ما في تلك الشراهة ، واكثره استجلابا للهوان ، ذاك الجوع ، الذي لا يدارى ولا يداوى .. جوع فيه الحاح جنسي طاغ .. فكأنني لن اشبع واذا شبعت فما ذاك ، الا بسبب التعب من تلذذي ، فأكف ، رغما عني ، وعيناي ، وكل روحي ، مشحونة بشبق غريب ..

قال أبي لامي :

ـ ليس هـذا معقولا .. اين يذهب بكل هـذا الطعام الذي يأكله ؟

ثم اخذني للطبيب ، متوهما ان في امعائي ديدانا تشاركني ما آكله .. فهي المسؤولة عن هواني ، ولست المسؤول ؟

وخيب الطبيب ظنه ..

ـ ما في امعائه أي عيب ..

وضحك « عبدالباقى » مضيفا :

ـ وتلك هي المشكلة .. لو كان ثمة ما يعيق معدته او امعاءه .. لما استطاع ان يأكل بالشكل الذي تتحدث عنه ..

ويهز أبي رأسه ، ويردد بأسى :

ـ بطيخة كبيرة يا دكتور .. بطيخة بحجم رأسه .. أكلها وحده .. وبعـد الغـذاء .

كان اطفى ما فيها شذاهـا ..

ذلك الشذى النباتي المبهم الذي ينبعث عادة من بطيخ اخر الصيف ، وقد اختزنته على مهل من رطوبة رمل الشاطىء الحار .. وقد نقعه المـاء ...

انني اكتب هذه السطور .. وفي كياني يفوح شذى تلك البطيخه التي ، كان ابي قد وضعها قرب النافورة في السرداب لتبرد في ذلك الظل الرطب عند الظهيرة ...

ولقد كنت اتناول طعام الغذاء ، وانا ممتلىء بمحض النداء الصـادر عن رائحتها الانثوية الفاغمة .. ولقد تخيلتها مقدما ... واستطعت ان اتذوقهـا وانا بعيد عنها تماما ...

بل لقد زدت على ذلك ، ورحت اراقب تلذذي وهو يتورم في جسدي ، ويتصلب من فرط الرغبة ، واستطيب لعابي ، وعصارات معدتي .. واتانى ..

كنت اعرف انها تنتظرني .. وانها لابد تعاني ذاك التشوق الصعب ، الذي تعانيه كل الاشياء المشتهاة ... فلونها البرتقالي ، بسبب ضراوة عصيرهـا ، وغضارة لحمها . يزداد احتراقا ... ومخاط بذورها اللامعـة ، يتلوى على نفسه ، بغطرسة فعله الجنسي المبتذل ...

اقتربت منها.. وحين رأيتها تحت عيني .. قريبة من انفي ، عرفت تماما، انها كفت عن ان تكون مجرد ثمرة .. او محض كائن نباتي مذبوح ... بل هي حيوان ، تام الحيوانية ... وان لها لحما مليئا بالعصارة والالياف .. يغـري بالبهجة والموت ...

ماكنت للوهلة الاولى ، اطمع بسوى ان اقف عندها واتأملها بحواسي ... مستدرا كل ما في جسدي من طاقة على صنع عصاراتي الحارقة ...

وحين اوجعتني يدي ، وهي تتجه ، على غير ارادة منها الى السكين ، ما خطر لي، اكثر من انني سأحتز منها قطعة ، هلالية ، اعض عليها باسناني واريح في نسيجها حرارة لثتي التي كانت قد تورمت تماما ..

ولقد صنعت الهلال الاول من جسد ذاك الحيوان النباتي الفذ ... ثـم نسيت نفسي ...

وحين انتبهت ، لم يكن قد بقي من القبة البرتقالية المشطورة ، سوى قطعة بحجم كفي ، عليها اثار اسناني ، وشهوتي ... في حين كنت انا نفسي ، ملطخا بشراهتي ... ودم الضحية النباتي .. الذي راح بسبب ما ينطوي عليه من كبريت سري يحرقني على منابت شاربي ..

ما كان معقولا ، ان اترك تلك القطعة الذليلة . لانها . في ابسط الاحوال ، يمكن ان تشهد علي ، فاستعنت بتوتري على ان ازدردها ... وتكومت دوني قشور قبيحة .. هي جلد ، حيوان مقتول بقسوة ... رحت اجمعها بتقزز وانا مشغول باخفائها .. بقدر انشغالي مقدما ، بأنتظار نتائج فعلتي ...



حين انتهيت من ذلك ... رحت الى مكاني فاستلقيت ، متدبرا ، شكل البراءة التي لابد ان احتاجها ، لكي لا تتجه الى الشكوك ... وكنت اسلي نفسي، بأنني رغم سوء سمعتي باعتباري اكثر اهل هذه الدار شراهة ، لا يمكن ان اجتذب الانتباه ، الى انني ، مؤهل لارتكاب موبقة فاضحة كهذه ... ان اكل ، لوحدي، وانا لم اكد انتهي من طعام غذاء دسم ، بطيخة بحجم راسي ، اشتراها ابي لنأكل قسما منها بعد الغذاء ، وقسما نتعشى به مع الخبز والجبن ... وربما تبقى قسم ثالث لليوم التالي ..

كنت مستلقيا في مكاني ، وانا اصغي الى اهلي وهم يتدبرون حيرتهم : في أمر البطيخة التي اختفت فجأة .. ويبحثون عنها . في كل مكان .. بسذاجة من فقد كل اسباب رصانته ... فهو يفتش في اكثر المضان شذوذا وغرابة ، من اجل العثور على سبب يمكنه ان يجده ، ان هو التفت الى اقرب مكان منه ..
كان اغرب ما في هذا ، انهم في ارتباكهم وبحثهم العجيب ، لم يخطر لهم أن يسألوني ... واذ كنت اتوقع ان يفعلوا ذلك فقد اعـددت نفسي للاجابـة ، والاقرار بما فعلته ، من خلال خجل مصطنع ، وفكاهة مخفية .. وندم مفضوح. ولقد كان انتظاري لهم ، معذبا ، وباعثا على الضحك في ان واحد .. ومرت

ساعة حتى وجدتهم يجيئون الى الغرفة ، فتصنعت النوم ، وانا اغالب حاجتي للضحك ... فقد كانوا بسبب حيرتهم متعبين ، وقلقين ، ومستعدين لتصديق اغرب الخرافات ...
بعد لأي .. سمعت صوت ابي يخاطب والدتي :
ــ اسمعي ... ايعقل ان يكون هو ؟
ــ ايعقل ذلك ؟

فالتهابطريقة ،جعلتني ادرك كم في حالتهم وحالتي من فكاهة ومرارة ، فما عدت استطيع منع نفسي م نضحك مفاجيء راح يهز جسدي .. وانا اسمع اختي تصيح مـن مكانهـا ...
ــ انظروا ..انه يضحك .. هو الذي اكلها ...

ولقد كبرت معي شراهتي .. والى حين راحت تكلفني الكثير من المهانة والعذاب .. بسبب ما اعتادت عمتي تسميته بـ « العين الجوعانة » .. ولعل الله استجاب صلواتي ، بعد ان اكتشفت أن هناك خطيئة بين الخطايا اسـمها الشراهة ، فرحت اضمها الى خطاياي المعدودة التي اعترف بها للكاهن .. اذ سرعان ما راحت هذه الشراهة ، تتخذ اشـكالا عديـدة تلبس احيانا لبوس الهوس .. أو اللجاجة .. متنقلة بين جانب وآخر ..



مر زمن تبدل الجوع الى الطعام ، فانصب على القراءة .. كنت اقـرأ بنهم حقيقي . متلذذا بالطريقة الداعرة نفسـها التي أكلت بها ذات يوم بطيخة بحجم راسـي .

ولقد قرأت كثيرا .. في عطلة صيفية كاملة ، رحت اقرأ يوميا من الصباح الى المساء ، وأنا لا أصدق ، أن هناك متعة تشـبه المتعـة التي اعيشـها ، في « حروب طروادة » التي عثرت عليها منشورة بالتسلسل في مجلدين بين كتب أبي يضمان اعدادا من مجلة « الرسالة » المصرية ..

كنت اقرأ ، وأنا مسحور بالبطولة والخوارق والاسلوب واللغة والحب والكراهية ، والاسماء ، وعالم الآلهة والحروب والعشق .. ولقد بكيت حقا لموت «أخيل» وامتلأ قلبي غما لليلتين كاملتين ..

وقرأت في تلك العطلة نفسها « قصة الميكروب كيف اكتشـفه رجاله » واحسست الحمى تملأني وأنا اتابع ، كما في قصة بوليسـية ، كفاح « لويس باستور » مع ميكروب الكوليرا ، واحسست عميقا محنته يوم اراد اعـلان اكتشافه ، فاحضر أمام حشد من اطباء ذاك الزمان ودجاليه ، زجاجة ، قـال للحاقدين أنها تحتوي ملايين من ميكروب الكوليرا تكفي لقتل اهل مدينـة باريس ..

كان قلبي يدق توجسا ..

فلقد تقمصني «باستور» واستطعت أن اتخيل تلك الزجاجـة المليئـة

بالموت ، ورأيت نفسي ، في لحظة أخرى جالسا بين اولئك الاطباء ، وأنا أرى الى أحدهم ينهض من مكانه ، مليئا بالجهل والسخرية والتحدي ..

ـــ اعطني الزجاجة .. وسأشربها .. وسنرى ..

يا لمحنة «باستور» !

يا لقلقه المزدوج ، وثقته بصدقه ، وبما اكتشـفه .. يا لغرور الطبيـب



الدجال ، الذي غامر ، دون أدنى احساس بالخطر ، وأصر على شرب الزجاجة كاملة أمام عيون الحاضرين ..

يا للانتظار القاتل ..

كنت اتابع في خيالي الصورة ، وأخاف من المحنة ، التي سيواجهها «باستور» ان لم يمت الطبيب المتحدي ، بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد عدة أيام ..

ولقد صليت مقدما ، من أجل موته ..

وتساءلت بعدئذ ، وأنا مستلق فوق سريري من الحزن والغضب والتعب ، ان كان «باستور» قد صلى مثلي ، من أجل أن يصاب ذاك المتحدي بالكوليرا ، وأن يموت جزاء غروره ، أو ان كان هذا العالم الصالح ، والصبور والحنون ، قد صلى ، مدفوعا بكل فضائله ، لينقذ الله هذا المغرور ــ وينجيه من الموت ، ما دام الطبيب الصالح ، لا يستطيع ، ولا يصح أن يتمنى موت أي من الناس ..

لم يمت الطبيت .. انقضى الموعد .. وما مات ..

ولقد تطلعت من مكاني الى الله نيابة عن «باستور» العظيم ، وسألته ، كما سأسأله في الايام التالية : لماذا ؟

أجاب باستور : لان الميكروبات التي ابتلعها الطبيب كانت ميتة ..

أما الله سبحانه ، فقد ظل صامتا ..

لم ينقذني من الخيبة والخوف والحزن ، سوى المزيد من الشراهة .. فان كنت ، بسبب ما واجهه «باستور» ، وبسبب الخوف المفاجىء الذي رحت اعانيه من ميكروبات وهمية ، تعيش حولي ، قد كففت ــ الى حين ــ عن متابعة « قصة الميكروب ورجاله » فان ذلك ، لم يجعلني اكف عن مجلة « الرسالة » ..

لم يكن علي سوى أن اقلب الصفحات رويدا ، لالتقي مثلا ، بذلك



الساحر ، خفيف الظل ، الذي اســمه « ابراهيم عبدالقادر المــازني » ، وهو يروي ، بجرأة ، وبساطة ، قصصا من حياته اليومية ، يتحدث فيها عن علاقاته بزوجته ، وبالنساء ، ومن ثم عن علاقته بالحياة •• أو لانصـرف الى تـذوق ما ينطوي عليه من مكر وبراعــة ذلك « الدكاترة زكي مبارك » و « ليــلاه المريضة في العراق » أو لاكتشف السحر الثقيل في الطريقة التي يكتب بهــا « أحمد حسن الزيات » أو يترجم عن الفرنسية •

بشـــراهة ••

أجل ، لم يكن ثمة مناص ، لاستيعاب كل ذلك ، الا بشـــراهة عينــين جائعتين حقا ، ومخيلة مستعدة لهضم كل ما تحتويه •• فتروح تصب عليه من عصارات ، جسد حار •• وروح متعطشة ••

ولقد دوخني غوته بـ « الآم ڤيرتر » ولا مارتين بـ «رافائيل» ووقعــت تحت سيطرة الغرابة لاول مرة •• فاذا العالم شاحب شحوبا شمعيا حزينا •• واذا العينان غائمتان ، بسبب من ضباب ناجم عن السحر ، واذا بي ، اعالــج فجأة جهد الانسجام ، مع كل هذا القدر من الغرابة والسحر والحنين المبكر الى الحب والموت ، دون أن اعرف الى ذلك سبيلا غير ،أن احدق في المرآة ، لارى مدى التشابه ، الذي استطيع تحقيقه مع رافائيل أو « ڤيرتر» •• أو حتى مــع « أحمد حسن الزيات » ••

بلى •••

زهدت تلك السنوات بالرغبة في أن اكتب كما يكتب «عمي» ذاك الامير الحزين •• ورحت اجرب ايقاع روحي ، على وزن سحر جديد واخيلة غريبة••

لايام عديدة ظل نبض الاســلوب الجديد ، يتردد في عروقي ، ويعيــد صياغتي ، تماما ، كما كانت تعيد صياغتي وجبة جديدة من الدهن والعســل والخبز الحار ، أو من الفاكهة الجديدة ••

كان ابن عمي قد جاء من بغداد ليقيم عندنا بضعة ايام •• وكان قد حمل



الينا من المدينة المسحورة بين امتعته ومتاعه سـلة كبيرة من المـوز ، عرفناه مقدما من رائحته الشهوانية ..

ولقد جلست عمتي الحولاء في الغرفة الكبيرة ، فارشة تحتها سـطوتها البيتية ، مستعينة بعدلها الناجم عن ترملها المرير ، وحكمتها المستمدة من المحبة والحرمان ، من اجل ان توزع «الموز» على العائلة ، وفق قانونها الحاد والمبهم .

كنت مفتونا بالموز ، بسبب غرابته .. ثم في اللحظة نفسـها ، بسـبب سهولته ، التي لن تكلفك سوى ان تنزع عنه قميصه الدهني ، فاذا «الموزة» أمامك عارية ، كما ولدتها امها .. رشـيقة غالبا ، ومكتفية ببياض جسـمها الحليبي ، وعسلها الشاذ ..

ولعل اعمق ما في فتنة «الموز» عندي ، ترجع اساسا وستظل منسـوبة دائما ، الى طعم الموزة الاولى الذي فاجأني ، وأنا في اول شراهتي .

فانا ما زلت اذكر ، تلك الدهشة . التي اعترت حواسي جميعا ، حـين تذوقت هذه الفاكهة المخنثة .. لم يكن لساني وحده هو السعيد ، بالاتصال بذاك الطعم الفريد الذي لاتشبهه الطعوم..بل فمي المملوء بالاعصاب والاسنان والدم الطفولي ، يتذوق الرائحة ، والصوت الناجمين عن استسلام الفاكهـة لشهوتي .. وهي ترتكب انسجامها المذهل ، ورغبتها الاكيدة والمعلنة بوضوح كاف ، في أن تصبح جزءا من فمي ولسـاني واسناني .. فكأني بعـد وهلة آكل نفسي ..

ولقد بقي فمي ، معطرا بالدم والشهوة حتى بعـد ان ذابت الفاكهة في ، وظل ذاك العطر يفوح مني سنوات ..

ولقد كان ذلك لذيذا ، بقـدر ما كان معذبا .. بسـبب قوة التوق ، وجيشان الشهوة في الذاكرة ، حتى جاء ابن عمي من بغداد .. وحتى جلست تلك الارملة الحولاء في الغرفة الكبيرة ، تخترع قوانين عدالتها من جديد ، في توزيع عذق الموز على العائلة ..



كنت استحي من ارتعاش جسدي الخفي ، وأنا اتخيل ما سيحدث بعد قليل ، واخاف من طغيان شراهتي ، وهو ما اعرف جيدا ، أنني موشك على ارتكابه ..

والله من ذلك التصميم الانتحاري الذي ما كان يمكن التخلص منه الا بالاستسلام له ، والتردي فيه ، باكبر قدر من الدعارة والهوان ..
لقد اخذت حصتنا من عمتي .. ولم تمر ساعة ، الا وانا اقيء لذتي .. متجررا من طعم خطيئتي الاولى .. ومن ذكرى عبوديتي الاكثر ايلاما .. ملطخا بالعقاب الغض والحامض ، الذي انتهك كل ما في فاكهتي المحبوبة من براءة وصفاء واغراء ..

لقد اكتشفت ، بقليل من الاسى ، وكثير من اللامبالاة ، انني لا املك ولن املك وسيلة أتحرر بها من شراهتي ، الا بالاستسلام لها ، حد الانتحار ..
ولقد قرأت مجلة الرسالة ذاك الصيف ، بالطريقة نفسها ، كنت اقرأ بحماسة ، وتعب .. وكانت عيناي تؤلمانني ، ورقبتي ، وجسمي .. وكنت اجوع واظمأ ، وأخاف ، وأضيق ، واختنق احيانا ، فلا أكاد استريح ، مدركا بمحض خبرتي البكر ، انني لن البث ان اصاب الان أو بعد قليل بذاك القيء المريح .. فما علي سوى الايغال والصبر وقبول الاسراف ..

لم البث ان انتقلت من قراءة «المازني» الى قراءة ما كان يكتبه في الرسالة « مصطفى صادق الرافعي » ، وحين ضاقت روحي بثقل ما في اسلوب هذا الرجل وصرامته .. عدت من جديد لاقرأ مسلسلة كتبها « زكي مبارك » عن رجل لا اعرفه ، ولم استطع ان احبه اسمه « احمد امين » ..

مقالات لعل « زكي مبارك » استغرق في كتابتها ونشرها بضعة شهور يتحدث فيها عن « جناية احمد أمين على الادب العربي » ..



لم اكن افهم ، ولا استوعب الكثير مما في تلك المقالات فالمفردات التي تنطوي عليها ، كانت غريبة علي •• ولكنني كنت مسحورا بالذكاء والسخرية والقدرة على التحدي ••

ولقد تمنيت ، لو أن « أحمد أمين » رد على « زكي مبارك » ، وكنت اتخيل أي لذة يمكن ان يشكلها عندي رد كهذا ، بحيث يتصل تحد باخر •• وسخرية بسخرية •• وبحيث تطول المعركة وتتسع •• ولكن « احمد امين » لفرط ذكائه ، خيب ظني •• فاختار الصمت •• ولقد ثقل على صمته ، فكرهته، وثقل على « زكي مبارك » من دون شك ، فراح يغالي في تهكمه منه وسخريته به ••

ومن القراءة الى الرسم ••

ما كنت قد اصبت بالغثيان ••

ولم احبس نفسي ، كما حدث ، ظهيرة «الموز» لاتقيأ •• بل نسيت فجأة مجلة الرسالة ، وانغمرت في علبة اصباغ زيتية ، كنت قد اشتهيت الحصول عليها او على مثلها منذ دخلت المدرسة المتوسطة لشد ما كان ثمة تشابه بين تلك العلبة والفاكهة •• فكلتاهما ملونة ، وعن كل منهما تصدر رائحة،تتصل بعنف بالتجربة والذاكرة ••

وأنا الساعة ، لا استطيع الخلاص من رائحة الزيت التي كانت تصدر عن العلبة ، وأنا اقلب عبواتها الانيقة بين اصابعي ••

رائحة ، اعرفها جيدا ، واستثار بها ، كما استثار برائحة عصاراتي ••

ترتبط بالمهارة والسحر والابداع •• وتعيد الى روحي ذكرى ذاك المرسم الذي دخلته لاول مرة ، وانتميت الى السحر الذي فيه ، وقد اتخذ شكل لوحات معلقة على الجدران •• تسبح جميعا في حمى ذاك الشذى الدهني الزنخ ••

ثم جاء يوم ، تبينت فيه جليا مصدر ذاك الشذى •



كانت العبوات التي تحتوي الاصباغ ، مطروحة على منضدة قرب حامل الرسم ، وقد اعتصر بعضها ، فبدا اشبه بحشرات ميتة ..

ولقد تأملت البراعة والرهافة التي كان يصطنعها طالب المرسم المدلل ، وهو يأخذ العبوة بين اصابعه ، ويضغطها ، فينفلت من الفتحة القصديرية دود ملون .. جديد .. وذو التماع معدني حاد ، لن يلبث أن يتلوى بفعل عنفوانه على نفسه ، ويشكل على خشبة الاصباغ ، حلزونا ضاريا ..

الالـوان ..

كل لون ، يشكل في خيالي كونا لوحده ، ثم يروح يقيم علاقاته باكوان أخرى ، يقترب منها ، او يلامسها ، بل يختلط احيانا ببعضها ويفقدها خواصها، أو يفقد فيها خواصه ، من اجل اختراع كون جديد .. الالوان .

والشذى .. أقرب ما يكون لرائحة امرأة ، او ربما نكهة أرملة مجربة ، لن يلذها الا ادمان اصيل للذات المحرمة ..

تبقى غرفتنا سابحة بتلك الرائحـة .. ويختلط بها عطـر «التربنتين» الصارخ .. ورائحة النفط .. والروائح المنبعثة عن الاسرة والطعام ، والاقدام الباردة والملابس المعدة للغسيل ..

وانا اسعد ما اكون ..

لا يعنيني أن أمي برمة بالفوضى التي احدثتها في غرفة النوم ، وأن اختي تكاد تختنق لثقل الرائحة ..

أنا ارسم واغني ، متذوقا شراهتي الجديدة ، وحمى اكتشافاتي المحرقه..

ارسم واغني ، مزدريا رائحة اقلام الشحم ، والحموضة الخفيفة المنبعثة من خشب اقلام الرصاص الملونة .

ارسم .. واغني ..

وما كنت لاغني ، الا لازيح عن صدري ثقل احساسي الظالم بالاخفاق.. فمن الظهيرة .. حتى دقت ساعة كنيسة اللاتين عشر دقات ، لم اكن قد



أفلحت الا بان الطخ نفسي ، وأفسد ذلك البهاء الذي يحتفظ به كل لون من الواني الغالية لنفسـه .

يا للهوان .. الذي لم يستطع قتل الحمية .. يا للفاكهة التي لا تشـبه الفواكـه ..

انا متعـب ..

وحماي لا تبرد في سريري .. بل ازداد احساسا بالواني ، سعيدا بأنهـا وسختني ، واعطتني رائحة جديدة .. حتى لكأني اشم رائحة نفسـي بعـد قبلة ناقصـة ..




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل التاسع

الاعتصام




مكتبة
الفكر الجديد

مرة اخرى ، عادت الشوارع ، فأمتلأت بالناس ، وارتفعت اصوات الاناشيد والهتافات ..

« الى الحرب .. الى الحرب ..
هلموا .. يا بني العرب .. »

ولقد كنت اصغي ، وفي روحي وجسدي ، قشعريرة ، هي اقرب للنشوة، منها الى الخوف .. وانا اعي ، قوتي ، وشدة نزوعي ، وقد اختلطت بكل ذاك الطغيان المجيد ، الذي صنعه الناس في شوارع المدينة ، واصبحت جزءا منه .

كان معي اصدقائي ..

وكنا جميعا نحمل في ايدينا كتبنا المدرسية ، بعد ان جاء عدد من الطلبة الكبار ، فاخرجوا المدرسة للمظاهرة ..

« تعيش فلسطين حرة عربية .. »

وأنا اصغي للهتاف ، وأتذوق اسم «فلسطين» بذاكرتي ، فتتجسد في ذهني صورة « بيت لحم » ، وأكاد اشم رائحة المولود الذي وضعته العذراء في المذود ، واسمع صوت ثلج خفي يسقط في العتمة ، وأناشيد ملائكة ، تهبط من السماء وهي تردد :

« المجد لله في العلى .. »
« وعلى الارض السلام .. »
« والرجاء الصالح .. لبني البشر ..»

كنت أحس ، وأنا منغمر في فيضان الحشد الغاضب ، أنني انتمي الى



«فلسطين» هذه التي يهتفون باسمها اكثر مما ينتمي أي منهم ، وأنها ، بالنسبه لي ، كنيسة من الكنائس ، التي اعتدت الصلاة فيها ، فهي تتصل بتاريخي الشخصي ، وصور ورعي ، وعباداتي ..

« عاشت فلسطين ..»

وان صوته ليرتعش من فرط الانفعال ، وتلتمع عيناه ، وأنا احدق فيه مأخوذا ، وقد استوى فوق فرسه الشقراء ، مثل أمير ، بحلته البيضاء ، وعقاله الاسود ..

ظلت عيناي مشدودتين الى ذاك الرجل على فرسه ، ولقد حسدته من كل قلبي ، أن يكون ، على كل هذا القدر من الوقار والقوة والنبل ..

واذ كانت الصورة مموهة ، وآسرة ، فقد قبلتها (رغم ادراكي بانها ، ثابتة ، وحقيقية) على انها ، من صنع خيالي ، واحببتها ، على هذا الاساس ، وانتظرت اختفاءها واختفاء البطل الذي على فرسه ، كما اعتدت ، أن ارى كل خيالاتي ، تغيب وتختفي فجأة ، لتترك في روحي فراغا ، اعانيه ، بالتوق ، واحاول تعويضه ، بتنشيط القدرة على التذكر .. والاستحضار ..

ورأيت ، للتو ، مريم العذراء ..

ورأيت يوسف النجار ..

وسمعت صوت يسوع الناصري يتردد في البرية : « يا اورشليم ... يااورشليم .. »

« يا قاتلة الانبياء .. »

« وراجمة المرسلين اليها »

« كم من مرة ، اردت ان اجمع لك بنيك » « كما تجمع الدجاجة فراخها ، تحت جناحيها .. » « فلم تريدي .. »

« هوذا بيتك ، يترك لك خرابا .. »

ولقد انخطفت روحي ، وأنا استعيد صوت الناصري ، وامتلأ فمي بالاحزان والاناشيد ، فتوسلت باصدقائي ، أن يرفعوني لاقول انا ايضا هتافي. وتبرع اثنان من أعز اصدقائي ، فحملاني ووجدتني ابرز من الخصم ،



واصبح محكوما به ، كما يحكم الفيضان غصنا •• أو طيرا ميتا ••

ما كنت أحس أنني اتحرك بقدرتي على الحركة ، بل بطاقة خارجة عن ارادتي ، حتى لقد خيل أنني فقدت قدرة قدمي على التحسس بالارض ، وعلى المشي ، وتحررت من انفاس الاخرين ، فأنا الان استنشق هواء مغايرا •• وانتابني دوار من خوف ونشوة ، فكدت انسى نفسي ، وانا أرى دوني ، كل تلك الرؤس ، واسمع كل تلك الاناشيد والهتافات ••

ـ هيا اهتف ••

هكذا صاح بي احد اصدقائي •• فادركت للتو ، وأنا جالس على كتفه ، ان الهتاف ليس سهلا ، وانني لاسباب عديدة ، فقدت قدرتي على ابتكار كلمات تصلح لذاك المجد الذي اعيشه ••

ـ اهتف ••

قال صديقي الثاني :

ـ لقد انكسر ظهري

واذ سمعته يقول ذلك ، فقد عضني شعور بالاثم ، فصرخت ، بكل ما اسعفتني به حنجرتي :

ـ عاشت فلسطين

واحتملت رثائي لنفسي ، وازدراء صديقي ، اللذين كنت اجلس على كتفيهما •• وتطلعت من مكاني هذا ، الى ذاك الشبح الجالس فوق فرسه الشقراء ، وابتلعت احساسا مالحا بالصغار ••

حين لمست قدماي الأرض من جديد ، وضغطت اجساد الحشد على صدري ، أستعدت بعض توازني ، مثل سمكة اعيدت الى الماء ، ولم تعد تؤذيني سخرية صديقي ، وانشغلت بالنظر الى سيارة الشرطة المسلحة التي تقف عند فم الشارع ، وتساءلت بنوع من القلق ، ان كانت ستطلق ، كما فعلت قبل شهور ، علينا النار ••

عند مركز الشرطة العام ، بدا لي ان المظاهرة تتريث ، عن عمد ، وقرأ واحد من الطلبة في الثانوية قصيدة :

« يا محمد قم وصح .. »
« في فلسطين استبيح .. »
« حرمة الدين المسيح .. »
« وكذا الدين الصحيح .. »

ولقد أصغيت اليه وحسدته . فقد كنت مشغوفا ، بأن أقول كلاما موزونا ، وأن أقوله في مناسبة حافلة كهذه ، وأنا مرتفع على كتفي صديقين عزيزين .. ولفرط احساسي بالحسد ، حفظت ما قاله طالب الثانوية .. وكان ينبغي أن تنقضي بضع سنوات ، لادرك ، أن ما اعجبت به ، هو مجرد كلام ركيك موزون ، فصغر في عيني ، طالب الثانوية ، الذي جعلت منه صديقا لي ، ورحت أعيره بابياته هذه،وهو يعتذر..حتى جاء يوم،سمعت فيه،أن محكمة حكمت على هذا الصديق بالاعدام ، فحسدته مرة ثانية ..

عندما عبرت المظاهرة شارع حلب ، صاح صائح ، يناشد الطلبة ان يعتصموا في المدرسة الاعدادية ..

ورأيت السيل يتدفق الى تلك المدرسة الكبيرة الواقعة على الشارع العام وتنشقت ، وأنا اعبر باب المدرسة القديم ، رائحة الطباشير والرحلات الاليفة فاستندت الى أحد الاعمدة الكبيرة في الفناء ، ورحت اصغي الى خطاب يلقيه علينا طالب ، أطل علينا من الطابق الثاني في المدرسة ..

كان الطالب سمينا .. قصير القامة ، ذا صلعة مكتملة ، بحيث صعب علي أن انظر اليه باعتباره طالبا ، ولقد كان يمتلك بالاضافة الى ذلك كله ، صوتا مدويا ، وحنجرة محترفة ، وكانت كلماته تواتيه ، فكأنه تدرب عليها سنوات.

ولقد تحدث في خطابه عن فلسطين ، وعن اليهود .. وعن الحكام الخونة ، ثم اعلن نيابة عنا جميعا ــ نحن الطلبة المجتمعين في الاعدادية ، اننا



سنعتصم في هذا المكان ، ولن نبرحه ، الا حين يأتي من يؤكد لنا ، ان الجيش سيواصل زحفه على « تل ابيب » ..

عام ١٩٥٦ ، اعتصم الطلبة في الاعدادية احتجاجا على العدوان الثلاثي ، وانتصارا لمصر وعبدالناصر ..

كان قد مضى على تخرجي في دار المعلمين العالية آنذاك ، سنتان ، وها انا مدرس للغة العربية في المدرسة التي كنت طالبا فيها قبل بضع سنوات ، وها نحن بضعة من مدرسين تضامنوا مع الطلبة ، فاعتصموا هم ايضا ، احتجاجا على العدوان ..

تقضى يومان، ونحن معتصمون ، تحيط بنا الشرطة وسياراتهم المسلحة ، ومن حولنا جميعا تهد رجماهير المدينة غاضبة ، وقد خيل لها ان الشرطة تحاصرنا لتلقي علينا القبض ..

ضحى اليوم الثالث جاءت سيارة عسكرية وترجل عند مدخل المدرسة عدد من العسكريين ذوي الرتب العالية .. وطلبوا الالتقاء بالطلبة ..

فتح باب المدرسة .. ودخل الوفد العسكري .. فاستقبلهم الطلبة بالهتاف بحياة الجيش .. وسرعان ما احتشد الجميع في ساحة المدرسة ، وبرز لهم اكبر العسكريين سنا ..

صفقوا له ، وهو يحكي لهم عن بطولة الجيش العراقي ، وعن غيرته الوطنية ووعيه القومي ..

وصفقوا اكثر حين قال لهم عن العدوان ، وعن تضامن الجيش العراقي مع كل الوطنيين من اجل العرب والعروبة ..

ثم خيم الصمت ، حين دعاهم ، الى انهاء اعتصامهم ، والاطمئنان الى ان الحكومة ستنفذ مطالبهم ..

ـ هل انت مطمئن ؟

صدر الصوت عن الصفوف الخلفية ، ورغم انه لم يكن مرتفعا فقد سمعه الجميع . وتوجهت كل الابصار الى طالب نحيل ، راح يفتح لنفسه طريقا بين صفوف زملائه ، ويبرز الى الساحة ، مواجها الضابط الكبير .

حين وقف لوحده في الساحة ، بدا رغم نحوله وشحوب وجهه ، وتواضع مظهره ، محاطا بهالة من قوة ورهبة ..

ـ هل انتم مطمئنون .. الى ان الحكومة التي جئت تحدثنا باسمها ، ستقف الى جانب مصر ضد العدوان ؟

قال الضابط الكبير ، بصوت فارغ

ـ اجـل .

ـ لا ..



كان الطالب النحيل قد كبر الان ، فبدا اقوى واكبر مما رايناه قبل لحظات .. وتساءل الجميع في أنفسهم ، من اين جاء هذا الشاب ، بكل هذا القدر من القوة والجرأة ، وهو معروف منذ جاء المدرسة بهدوئه ، ورزانته .. ومسكنته ؟

ظل الطالب المربوع ، يطل علينا بصلعته من الطابق الثاني ، وهو لا يفتأ يردد شعاراته المتصلة عن فلسطين .. والقدس .. وبيت لحم ، وقبة الصخرة.. واليهود .. والخيانات .. والدم ..

ومن دونه ، كنت ضائعا بين الحشد ، متشبثا ، بصور من «العهد القديم» عن يهود ، ذوي لحى كثة .. ورائحة خبز فطير ، ودم يابس .. وأنبياء قساة .. ومزامير رهيبة .. ثم أرى يسوع الناصري .. وهو يجلد في الهيكل .. واشم رائحة يهوذا الخائن ، وقد تسلل توا من « العشاء السري » ملطخا بالحقد والنميمة .. ثم يوقظني احساس بالجوع ، فاتساءل في سري ، بخجل مرير ، عن ساعة ، ساستطيع بها ، أن أنسل من هذا المكان ، الى حيث ينتظرني ، البيت والطعام المعد بعناية ..

تتابع الخطباء في الطابق الاعلى ..

كنت اصغي اليهم .. مدركا ، أنني استطيع ان اقول كلاما ، اجمل واصدق من هذا الذي يقولونه .. فهم لا يعرفون فلسطين كما عرفتها .. ولا يكرهون اليهود ويخافونهم ، كراهيتي لهم وخوفي منهم ــ وهم ، فوق ذلك ، لا يجيدون الالقاء ، والخطابة ، اجادتي لها ، ولا يفقهون في اللغة ، والانشاء ، عشر ما افقه ..

فما الذي يحول بيني وبين ان اطل ، انا ايضا ، رافعا ذراعي ، ملوحا بكفي ، رافعا صوتي ، مستعرضا حبي وخوفي وبراعتي ؟

مجرد ان اصعد هذا السلم الحجري ، فاصير في الطابق الثاني ، واروح انتظر فرصتي .. وستجيء ..

ساتشبث بالسياج ، وافتح فمي ، بالجملة التي كنت اعددتها بعناية ومحبة ..



ولقد فعلت فصفقوا لي ..

ورأيت وجوههم ، وهي تتطلع لـــي ، بعيون لا اكـــاد اتبينها ، وملامح متداخلة ، تشـكل ، مجتمعة ، كائنا رهيبا ، تنبغي السيطرة عليه .. واذ ادركت ذاك خفـــت ..

ولمحت وجها يبتسم بســخرية ، ففقدت ثقتي بنفســي ، وبفلســطين ، وتحولت حنجرتي الى قماش مبلول .. وبدا لي أن جمهورا من يهود المدينـــة يصغي الي بخبث وحقد .. يهود يستبدلون الملابس القديمة بالقدور والاواني او يساومون عليها بزيادة فلس أو نقصان فلس ..

كانت عمتي الحولاء قـــد استنزلت على اليهودي « مناحيم » كل دعواتها القاسية .. والصقت به كل ما تعرفه من اتهامات باللؤم والجشع والخبث وهو ، يلملم ما استطاع ان يبتاعه منها : معطف ابي الذي يرجع بتاريخه الى العهــد العثماني وحذاءه القديم .. وجلباب عمي الذي نخره العث ، وانه ليصغي الى عمتي ، ويرفع اليها بين حين واخر عينين صفراوين ، وابتسامة شفتين مخفيتين بعناية وسط لحية كثة .. مرددا :
ــ فدى لك .. فدى لك

فتردعليه بالعمى . دعاء من كل قلبها ، وقد زاد حول عينيها ، وامتقــع وجهها من فرط الغضب وانا واقف عن كثب ، حائرا ، بين ان ارثي لها في غضبها وحزن عينيها الحولاوين ، او ان اتدبر الاشفاق على هذا اليهودي الذي يقـــارب السبعين .. متسائلا عن سبب قبوله كل هذا القدر من شتائم عمتي ، وجـــور صبيان المحلـــة ..

يهودي ..
يقولونها، كما يلفظون شتيمة ..
واليهودي اليهودي « ذو السالفين » ، يظل يطوف في المحلة ، حاملا كيسه على ظهره ، مستخدما لا مبالاته ونقوده ، مدربا قلبه واحلامه ، على الصبر حينا، وعلى الحقد غالبا ..

وهل ثمة ما هو اكثر حقدا ، من حقد ذاك اليهودي الذي سار في جنازة المسلم ، يبكي ويمزق ملابسه ، وينتف شعره .. ويلطم خديه ؟ ..
بكى بكاء يفتت الاكباد ، فقال الناس ــ يالوفاء هذا اليهودي ، لصديقه المسلم ، في حين كان يهودي اخر يتطلع عن كثب حائرا ، حتى اذا انتهت الجنازة، جاء اليه معاتبا ، متسائلا عن السر في كل هذا البكاء والنحيب ..



اجابه صاحبه :
ـ ابكى اجل .. ولو كانت لك ذرة من غيرة وبعد نظر لبكيت مثلي .. لانـه لو استمر المسلمون يموتون هكذا واحدا واحدا ... فمتى سيفنون من على وجه الارض ؟

ما ان فشلت في انجاز خطبتي ، حتى عاودني الاحساس بالجوع واختفت من روحي صورة فلسطين ..

رحت اتساءل بالحاح ، في سري ، عن الوقت الذي يسـمح لنا فيه ان نغادر هـذا المكان الى بيوتنا ، ونتناول غداءنا .. اذ ليس معقولا أن نبقى هنا جائعين .. في حين يغتصب اليهود فلسطين ..

انسحب عدد من الطلبة الى القاعة في الحديقة الخلفية ..

كانوا متعبين من الخطابات والهتافات والتصفيق ، وكنت موقنا انهم ، يعانون مثلي الجوع نفسه والاسئلة ..

خرجت من القاعة .. ورحت اتجول في الحديقة الكبيرة .. ولمحت عددا من الطلبة يعبرون السياج ويفرون .. تلاحقهم سخرية زملائهم .. وسمعت طالبا يصيح من احدى نوافذ الصفوف :

ـ من يهرب .. فهو يهودي وابن يهودية ..

وتعالت ضحكات مكتومة ، ونظرت الى الساعة فوجدتها تقارب الثالثة بعد الظهر ، وانتابني خوف غامض ، فرحت ابحث عن اصدقائي .

استدرجوه الى حيهم الذي يقع في طرف
المدينة .. كيف ؟ لست ادري .. ولا احد يدري ...
تقول ذلك عمتي الحولاء ، وهي دائبة على حياكة جورب جديد .. وانـا وامي واختي نصغي اليها ، باستسلام حزين ..

ـ كان كاهنا .. قد انتقل قبل اسبوع من الريف الى المدينة .. طيبا ، وساذجا .. ويصدق كل ما يقال له ...

ـ وبعـد ..

ـ وصادف آن مر خطأ بمحلة اليهود ... فاحتالوا عليه ... وادخلوه احـد منازلهم .

ـ كيف يا عمتي ؟



وتتطلع اليّ الحولاء بصبر ، وتقول بغضب :

ـ وما ادراني ، انا ، يا ولد ؟ ... اتحسبني كنت معهم ؟ .. ولكنهم ، من دون شك ،احتالوا عليه ، فما ان دخل البيت حتى قيدوه .. وضعوه في سرير يشبه المهد ، مليء بالمسامير .. ودون السرير اوان من نحاس .. راح دم الكاهن يسيل فيها ..

ـ والكاهن ؟

ـ ماذا بالكاهن يا ولد ؟ ..

ـ اما حاول الدفاع عن نفسه ؟

ـ كيف يدافع عن نفسه ؟ .. قلت لك انهم قيدوه ..

ـ يصرخ .. كان يستطيع ان يصرخ

ـ قلت لك انهم سدوا فمه .. ووضعوه في سرداب .. خفت ان اقول لها ، انها لم تقل ذلك ، وانشغلت في ترتيب الصورة الدامية في مخيلتي ، وتصحيح الاخطاء التي كانت تقع فيها رواية الحولاء

الكاهن مشدود في ذلك المهد الكبير .. عار الا من سذاجته .. ولحيته .. والمسامير تنغرز في لحمه القروي .. واليهود يهزونه .. والدم يسيل .. ثم يتجمع في القدر النحاسي .. ويجف .. فياخذه اليهود .. ويصنعون منه خبز عيدهم الرهيب ..

قاربت الساعة الرابعة ..

وأنا عند السياج ، اغالب التردد في الهرب .. واتدبر ندما خفيا على مكابرتي التي جعلتني ، لا اهرب من المدرسة ، حين هرب اعز اصدقائي. مفضلا الجوع والقلق من اجل ان امتاز عنهم بادعاء الثبات والاستقامة والا فما معنى : « عاشت فلسطين .. » وكيف ؟

منذ عبرت الساعة الواحدة ظهرا ، راح الجوع يذكرني بفلسطين ، في حين اصبحت فلسطين تذكرني بالجوع ..

وتساءلت : ترى ماذا لو حل المساء .. وجاء الليل ؟ وتمنيت ان التقي ،

بذاك الطالب الاصلع في الطابق الاعلى ، لاسأله .. بل لقد تمنيت ان اسأل ايا من هؤلاء الطلبة الذين يتوزعون في المدرسة صامتين ، متعبين ، عما آل اليه امر فلسطين .. والجوع .. والاعتصام ..



عند الرابعة والنصف •• وكنت ، اتلهى بقراءة ، بعض القصاصات المعلقة في لوحة الاعلانات ، جاء طالب كبير ، وسألني :

ــ الست فلانا ؟

ــ بلى

ــ اذهب اذن •• ان أباك يسأل عنك ••

ــ اين ؟

ــ هناك عند السياج ••

بلى ••

كان هو بعينه •• باعوامه السبعين •• وهدوء عينيه •• واناقته المحببة ولقد رأيت من بعيد ابتسامته ، وومض نظارتيه الذهبيتين ، فاحسست بالخجل من نفسي ، أن أكون قد جشمت هذا الشيخ ، كل هذا القدر من العناء والحرج•

ــ هــوذا ••

أشار الي بضعة طلاب ، فتقدمت منه ، واستسلمت لابتسامته المريرة ، ورجولة تاريخه الطويل••ولم ازد أن تقدمت منه مطاطئا رأسي••كنا قريبين•• لا يفصل بيننا ، سوى سياج الحديقة ، وكان ممكنا تماما ان يمد لي يــده ، ويساعدني على عبور السياج ليأخذني معه الى البيت •• ولكنه لم يفعل ••

اكتفى بأن يشعرني بابوته ، ثم بطريقة غامضة ، بانه راض عني ، ولقــد أدرك الطلبة الذين ، كانوا يقفون قربنا ذلك ، فاحترموا ابوة هذا الرجل،ذي السبعين عاما ، وابتعدوا ، تاركين للاب وابنه ، ان يتدبــروا ، من جديــد ، علاقتهما •• وسمعته يهمس لي :

ــ اتحتاج الى شيء ؟

واتتابني خجل شديد ، لان جوعي ، جرب ان ينوب عني فيقول كلمــة تفضحني أمام الرجل الذي صنعني بمحبته ورؤوس اصابعه ••



ــ كــلا ..

ــ خــذ ..

واعطاني دينارا كاملا ..

ــ لا حاجــة ..

ــ بل خذه .. فقد تحتاجه ..

وادركت أنه .. اتخذ قراره نيابة عني .. فلا مجال منذ الان للتراجع.. أو الهرب .. أن أبي يباركني ، وابتسامته المخفية بادب تباهى بي ..

ــ حالك .. حال زملائك .. اذا بقوا فابق معهم ..

وتذكرت يوم اخذني الى «الميتم» .. واستعدت صوت أمي وعمتي ، وهما تناشدانه الرأفة بي ، ما دمت وحيده .. وابن شيخوخته ..

اخفيت الدينار الذي اعطانيه أبي ، مثل وصية ..

ونسيت جوعي ..

وانتشرت علامات المساء الجديد ، في معنى الاعتصام ..


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل العاشر

المحامي




مكتبة
الفكر الجديد

أخذت معي الى الثانوية ، جسما ناحلا •• وروحا شرها •• كان في جيوبي ، الكثير ، مما يمكن أن اباهي به ، ولكنني أثرت التروي ، حذر ان أبدو ، أمام طلبة « الصف الرابع الادبي » مدعيا ، اوذا فجاجة ، وعلمت لحاجة مزاجي الصبر •• والانتظار ••

وما الضير ؟

فهي أيام •• او اسابيع ، وتنتظم الدروس ، وينكشف المدرسون ، والطلبة •• وأنكشف أنا مرة اخرى ، متخذا مكاني في هذا العالم الجديد ، حريصا على اعادة صياغة ملامحي ، وقدراتي •• لاقلق ••

بل ، هو تفاؤل استطيع أن اتقرى حدوده ، والمس اسبابه •• وأولها ، انني ، منذ سجلت في « الرابع الادبي » ، حددت مسافة بعدي عن كل تلك الدروس التي سببت لي الكثير من العذاب •• الحساب •• والجبر •• والهندسة •• والكيمياء •• والفيزياء •• وال •• بل •• لقد زدت على ذلك ، فقطعت علاقتي ، والى الابد ، بدروس كان يمكن ان تقدم لي المزيد من العذاب ، عرفتها مقدما ، وخفتها ، وكرهتها •• وانا اراقب اختي ، وهي واقعه تحت وطأتها :

المثلثات •• والهندسة المجسمة •• والحيوان •• والنبات •• وفيزياء الميكانيك •• والكهرباء •• وال ••

كتب ضخمة حينا •• وهزيلة حينا •• ولكنها جميعها ، تنطوي على طلاسم واحاج ، لا تملك أن تثير فرحا او تحرك عاطفة •• بل تكتفي بالتلويح

عن بعد ، بغموض شديد ، مستخدمة مصطلحات غريبة ورموزا مبهمة •• غير ذات معنى •• ولا جدوى ••

كنت اقلب كتب اختي ، واختنق فضولي ، ازاء ما تنطوي عليه من غموض مستخدما ، كل طاقتي على الاحتقار ، لاكتم قصوري عن ادراك ما يعنيه مثلا « الجيب •• والجيب تمام •• والظل •• والظل تمام » ••

علام كل هذه المعميات ؟

وما الجدوى من تلك الرسوم ، عن كائنات لاتمكن رؤيتها بالعين المجردة « الاميبا •• والبكتيريا ••» وماذا عن « البرامسيوم » و «اليوغلينا» و «البلاستيدات» ••

يا للنفاق !••

لشد ما كنت انطوي عليه لكل تلك الاسماء •• والرسوم •• والرموز•• من فضول طاغ •• ومن احساس بالقصور والتخلف ، ما دمت لا املك ، كما تملك اختي ، وكما يملك الكثيرون ، من معرفة ، ووعي ••

ولكنه الخوف ••

وهو بعد ذلك ، احساس بنقص القدرة الذي اوحى لي به ، دون ان يقصد ، ذلك الانسان الذي اسمه «صموئيل» في الصف الخامس الابتدائي ، ابتداء بالعمليات الاربع •• وجدول الضرب ••

علمي •• أم أدبي ؟

كان ذاك هو امتحان الاختيار الذي واجهته ، منذ اللحظة التي تسلمت فيها نتيجتي ناجحا من الثالث المتوسط •• ولقد اجبت بقوة ووضوح : الادبي•

فضحكت اختي ، وقالت ·

ــ اذن •• فهذا يعني أنك ، منذ الان •• لن تكون طبيبا •• ولا عالما •• ولا مهندسا ولا صيدلانيا •• ولا •• ما الذي ستكون ؟•



المتني .. فتشبثت بمكان الالم ، لارد عليها ، والعائلة كلها تصغي الينا :

ـ سأكون محاميا ..

ولقد كان جوابي غريبا حتى على مسامعي ..

فانا قبل ان تسألني اختي بتلك الطريقة المهينة ، عما اريد ان اكونه ، ما كنت قد اخذت سؤالا كهذا مأخذ الجد .. لم يخطر لي ، أن اسأل نفسي عما اريد ، أن اكون .. بل كنت مكتفيا ، بما انا كائنه .. مجرد طالب .. ينتقل من مدرسة الى مدرسة .. ومن صف الى صف .. الى آخر العمر ..

كان سؤال اختي مغرضا .. وحقيقيا .. بحيث بدا كانني اسمعه للمرة الاولى ، رغم أن معلمي الانشاء ، كانوا منذ الابتدائية ، لا ينفكون يسألوننا في دروس الانشاء ، عما نريد ان نكون عليه في المستقبل ولماذا ؟

المستقبل ؟

لم تبد لي المفردة في سؤال المعلمين حقيقة قط .. ذاك أن المستقبل ـ حتى سألتني اختي سؤالها الصعب ـ لم يكن يمتد في ذهني اكثر من ساعة .. ثم، اكثر من يوم غد .. فاذا زاد امتد الى شهر .. ربما في انتظار عيد قادم .. أو في انتظار اعلان موعد النتائج .. أما معنى المستقبل الان ، فهو حاد .. حتى ليكاد يكون مؤلما .. ولتفادي الالم .. قلت لها انني انوي ان اصير محاميا .

ولقد سمعت صوتي .. وسمعني عمي الجالس في زاوية الغرفة الكبيرة.. وسمعتني أمي .. والعائلة .. ثم سمعوا اختي وهي تقول ، بنبرة لا تخلو من استنكار :

ـ محام ؟

ـ اجل .. ولم لا ؟.

وحين قلت ذلك ، امتلأ خيالي ، لفرط ما كنت احسه من انفعال ، بصور شديدة الجذب .. رأيت أول ما رأيته ، صورة « يوسف وهبي » الذي كنت معجبا به أيما اعجاب ، وهو يقف في محكمة حاشدة ، ويصرخ صرخته



الشـهيرة :

ـ يا حضرات القضاة ..

ويستطرد خيالي فاروح اسمع الصوت المجلجل :

ـ كانت هنالك فتاة ، زجت بها المقادير في صالات الرقص ..

واذ تشحب صـورة « يوسف وهبي » في ذهني ، لانه لا يسـتطيع ان يشفع لي في حضور العائلة ، التي لا تعرف عنه شيئا ، تتقدم صورة «نجيب» ابن عمي ، وتأخذ مكانه ..

الشموخ نفسـه ..

والكبرياء .. والنجاح .. ثم صوته ، وهو يدافع عن اخيه الماثل أمـام المحكمة بتهمة سياسية ، يمكن ان تسوقه الى الموت ..

ـ سيدي رئيس المحكمة ..

والمحامي أنيق .. بدون إفراط .. وصـادق بدون ادعـاء .. وهو ، يدافع عن اخيه ، لينقذه من حبل المشنقة .. ويستطرد محامي الدفاع :

ـ يدفعني للمثول بين يديكم عاملان .. الاول هو انني عراقي احب وطني ، وأرجو له الخير ، واعمل من اجل ذلك ، من خلال وقوفي الى جانـب الحق ، والدفاع عن القانون والعدل .. والثاني ، هو ان المتهم الذي توكلت للدفاع عنه امام محكمتكم هو اخي ..

وتوشك عيناي ان تدمعا ، وانا اقرأ «الدفاع» منشورا بنصـه في اكثر من صحيفة بغدادية .. واجدني منساقا الى الاندماج في حالة وجدانية كأنني اعيش حكاية .. أو اشهد مسرحية ..

بل ، انني لاندمج اكثر ، فانا الان مقتسم ، بين المحـامي وموكله .. بين اخوين ، كلاهما ابن عمي .. حائر في اعماقي حقا .. ايا منهما اريد ان اكون ..
فاذا ضايقتني حيرتي ، لذت بصورة متهم ، ينبري للدفـاع عن نفسـه



بنفسه .. فهو يؤدي دورين . في آن واحد ..

يا للمجـــد ..

إن المحكمة ، التي لم اكن قد رأيتها رأي العين آنذاك ــ ولن اراها الا بعد سنوات ــ ان صالة المحكمة حاشدة بالناس ، وثمة ــ كما في الافلام التي اتيح لي ان اراها ــ منصة يتوسطها رجل اشيب الشعر ، رزين الملامح ، اقرب ما يكون شبها بابي .. وعلى جانبيه اعضـــاء المحكمـــة .. في مثل سـنه او اصغر قليلا ..

وسينهض عن يمين المحكمة ، ذاك المدعي العام ، حاقدا ، حادا ، حاذقا ، فيروح يكيل لي التهم ، مستصرخا المحكمة التي يرأسها رجل في مثل عمر ابي وله ملامحه نفسها ، ان تنزل بي اشد العقاب ..

ويجيء دوري ..

دفعني الشرطي ، الى غرفة صغيرة ، بعد أن فك قيدي .. فوجدتني أمام رجل في الخمسين من عمره يجلس تحت صورة عبدالكريم قاسم ، هزيل الملامح، يفصح وجهه عن ضجر مهني ثقيل ..

وقلت : السلام عليكم ..

فلم يرفع الرجل وجهه الى الشرطي ، ولا رد على تحيتي .. بل اكتفى بأن كتب بضع كلمـات على الاوراق التي أمامـه .. ودون أن ينظـر الينا ، قـال بصـوت متعـب :

ــ خـذه ..

فأدى الشرطي التحية ، وقادني مـن يـدي ، وخرجنا .. وحين كـان الشرطي يعيد وضع القيود في معصمي قال لي بخطورة ، أن الحاكم قرر تمديد توقيفي عشرة أيام اخرى !.

اتخذت مكاني في الصف « الرابع الادبي » ، في الصفوف الخلفية ..

كنت اتحسس جيدا ، حدود ثقتي بنفسي .. ثم امد اصابعي الى وجهي ، الذي حلقته امس ، كما يفعل الرجـال .. واتذوق معنى التحاقي بالرجولـة .. او بالشباب على الاقل ..

ــ لم تعد بعد طفلا .. الا تستحي ؟ انظر لقد نما شارباك ..



واستنيم لهذا الملق ، واخف ، فاتطلع الى شاربي ، وقد اتضحا •• واكتم فرحي ، مستعرضا ، كل تلك الفضائح التي انجزها جسـدي •• والمآثر التي حققها «ولد» مثلي ••

قصة تلك البنت (جيم) مثلا •• وقد تطورت فاصبحت قصة حقا••وحكاية اللوحات التي عرضت في المعرض الكبير ، وامتدحها معلم الرسم ، ومدير الثانوية •• فصافحني ، وهو يتأمل انفي المتورم ، مبتسما لي ، باستفزاز لم يخف على حصافة مراهقتي ••

وفوق هذا كله •• تلك القصاصة التي اقتطعتها من جريدة بغدادية •• وهي تنطوي على مقطوعة ، مكتوب اسمي دونها ، هكذا بقلم «فلان بن فلان»!

لم يكتف فرج الاعور ، بالسخرية مني ، بل مد يده الى صندوق خشبي ، واخرج لي قصاصة من جريدة قديمة •• وقال لي واحدى عينيه ترمشان بصعوبة لفرط الزهو :

- انظر ••

ولقد نظرت •• وامتلأ قلبي بالصغار ، فلم املك الا ان اسأله :

- كيف ؟

- تسألني كيف ؟

قال فرج بفطرسة ••

فاجبته بذلة :

- اجل •• حسبك ان تقول لي •• ماذا فعلت ؟ •• ولم يقل لي •• الا بعد ان كادت روحي تطلع،فهربت••ولشهر كامل،رحت اجرب الكتابة الى الجريدة •• كنت اكتب وامزق ، تراقبني عزة نفسي ، ويستحثني ايماني بقدرتي •• ثم يأتي خوفي من الفشل ••• فيثبط من عزيمتي ••

وفي ظهيرة حارة •• رآني مكتب البريد قرب « شارع النجفي » القي رسالتي ••

وفي ظهيرة مشابهة •• كنت في الشارع نفسه ، اقف عند المكتبة ، واتطلع الى اسمي في الصحيفة والى كلماتي •• محاولا التماسك ، لشدة ما احسسته من دوار ••

لا خـوف ••

أنا ثابت على رحلتي •• استقبل الدروس والمدرسين ، بابتسامة واثقة••



مؤمنا أنهم ذات يوم سيميزونني •• وأنهم سيعطونني ما استحقه من رعاية ، وسيمنحونني ما أنا اهل له من نجاح ••

لا رســوب ••

اللهم ، ان يصطادني مدرس « الرياضيات العامة » ويكتشف مقــدار ضعفي وسذاجتي ، وأنا ما ازال ، حتى ذاك العام ، ارتبك في حساب العمليات الاربع ، واخطيء في جدول الضرب ••

لا رســوب ••

ولقد اكتشفني اول من اكتشفني مدرس الرســم ، مســتخدما ذاكرته متشجعا بابتساماتي المنافقة ، التي استقبلته بها •• فلم يلبث بعد اسبوعين ان عهد لي بمسؤولية مرسم الثانوية ••

يا للمجــد ••

اخذت مفتاح المرسم بغطرســة ملك يتــوج حديثا ، واســتخدمت كل ما انطوي عليه من خبث لكي أبدو ، ملكا حقا •• ثم لكي ادافع عن مملكتي••

واذ اســتقر بي الامــر •• فلقد انتظرت بصــبر ، أن ينتبه لي مدرس اللغــة العربيــة ••

ولشد ما كان ذلك صعبا ••

ــ اســتاذ

وهو لا يســمعني ••

كيف يمكن ان يستطيع ، والصف يغلي بثرثرة اربعين طالبا مشاكسا •• يحاول مدرس اللغة العربية ، بصبر عجيب ، ان يتابع معهم ، دروسه •• غير عابيء ، بمن يقوم من مكانه ، او يقعد •• بمن يصمت ، او يتحدث ••

ــ اســتاذ ••

والاستاذ يتحدث •• لا تســتطيع أيما قوة في هــذا الكون ، اقناعه ، بالسكوت دقيقة واحدة ، ريثما ، ينجلي ، هذا الهرج الذي يعيشه الصف ••



ـ اسـتاذ ..

تعبت من الاسـتنجاد به ..

وادركني حنق ظالم .. فهذا الاستاذ ، مشـغول باحساسه الحـاد ، بحقيقة انه داخل الصف مدرس .. مجرد مدرس للغـة العربية ، ينقل الـى الطلبة ، بطريقته الخاصة ، معرفته ، باكثر ما يملك من نشاط واشد ما يكون من رقة .. وكيف يمكن ذلك ، الا بأن يفتح فمه حال دخوله الـى الصـف ويتكلم ويشرح ، ويكتب على السبورة ، ويضرب الامثلة و .. حتى يـدق الجـرس ..

ما عليه من الطلبة .. أصغوا ام لم يصغوا .. فهم بالنتيجة سـيأخذون مما يقوله طرفا او اطرافا لابد ان تعلق في ذهنهم..وحسبها ان تكون كافية لان تحقق لهم ، حين يمتحنون ، النجاح أو بعضه .. والا .. فالى جهنم !!

ـ اسـتاذ ..

وهو مستمر في قراءة مقطع من القصيدة ..

ـ اسـتاذ ..

وهو دائب في اعراب بيت من الشعر .. يداه تلوحان .. وفمه يتحرك.. وعيناه ثابتتان .. وشعره مشعث .. وغبار الطباشير عالق باصابعه .. وفضله سترته .. ووجهه والحبر .. ومعطفه الطويل ورباط عنقه .. والصياح .. والدمدمة .. والاسئلة .. والتعليقات .. والضـحك .. وأنا مهضـوم .. لا ادري كيف اتدبر حاجتي ازاء كل ذلك ، الى الضحك حينا او الى البكاء..

يا لسـذاجتي ..

فلو كنت املك قدرا كافيا من الخبرة ، لادركت ، منذ الدرس الاول ، ان القضية باسرها ، لا تستحق اكثر من ان اخذ الامر كله على محمل الفكاهة.. والا اعلق ، على مدرس العربية هذا ، أية آمال .. بل اكتفي ، بأن اتمتع ، كما يتمتع كل الطلبة بما في درس اللغة العربية ، وفي مدرس اللغة العربية ، من



طاقة على الفكاهة •• ما دام ليس ثمة اكثر من ان تعد شـهور دراستك ••
مدركا مقدما انك ستنجح في درس اللغة العربية •• شئت ذلك ، أم أبيته ••
اذ ما من رسوب •• أجل •• ما من رسوب ••

ليس في تاريخ هذا الاستاذ العجيب ، اية حالة رسوب ••

بل ينجح الجميع •• وعلى مسؤوليته هو بالذات •• وما من مشكلة ••
ان الطلبة مؤمنون بذلك •• وهو مؤمن مثلهم •• والادارة بعد تجربة عشر
سنوات مؤمنة •• ومطمئنة ••

فأين المشـكلة اذن ؟••

المشكلة •• مشكلتي •• انا الذي أردت أن يميزني مدرس اللغة العربية
ويشير الي ، كما أشار الذين سبقوه ، منذ الاول المتوسط باعتباري حاذقاً
وجديرا •• ولتكن درجتي ، بعد ذلك ، صفرا •• أو اقل من الصفر ••

ولعل مما زاد حنقي ، واحساسي بالغبن ، انني بعد بضـعة اسـابيع ،
اكتشفت ان مدرس اللغة العربية ، هذا ، شاعر •• وانه له قصائد منشورة في
الصحف والمجـلات ••

واكثر ••

لقد اكتشفت ، فضلا عن ذلك ، ان هذا المدرس ، نال شهادته من مصر••
وأنه تلميذ طه حسين ••

اسـتاذ

كنت هذه المرة ، اتبعه ،• وهو مسرع الى مقره في مكتبة المدرسة ، وقد
اتخذت قراري بأن اجعله يصغي الي •• ولعله حدس ذلك ، فقـال دون أن
يلتفت الي :

ـ نعم •• ماذا تريد ؟

قلت وأنا ما ازال خلفه :

ـ عمي يسلم عليك ••



ـ مـن عمك ؟•

وذكرت له اسم «الامير» ، غير عابيء بأن عمي ، ذاك الامير ، لم يكلفني قط بأن اسلم على أحد •• ولم يأذن لي أن اسلم بالذات على مدرس اللغـة العربية •• عدا عن انني كنت اجهل ان كان هذا المدرس ، يعرف عمي حقا ، أو أنه قد سمع بأسـمه ••

ـ حقـا ؟••

قالها ، وتوقف هنيهة ، ثم التفت ، فرآني ، وسمعته يقول :

ـ هذا شـرف كبير ••

ثم اضاف ، وهو يضع يده الصغيرة على كتفي :

ـ عمك •• عالم فاضل ••

وانصرف عني ••

حين حل المساء ، واتخذ عمي مجلسه في زاوية الغرفة الكبيرة ، قلت له ، والنفاق تحت لسـاني :

ـ يسلم عليك ، يا عم ، الاستاذ «فلان» مدرس اللغة العربية ••

ـ فلان ؟

تساءل عمي ، فادركت ، أنه لا يعرفه •• وقلت :

ـ وهو يرجو منك نسخة من كتابك « تاريخ الموصل » ••

من اين جاءتني هذه الكذبة ؟ لست ادري •• لقد هبطت على لسـاني فجأة ، تحت تأثير احساسي ، بحاجتي ، واستجابة للحالة التي احسست أنها ، سادت مناخ الغـرفة الكبيرة ، حيث ، انتبهت الى ان الجميع يصـغون الى ما اقوله ، مقدرين ، اهمية ان يطلب مدرس اللغة العربية وساطتي ، للحصول على كتاب من كتب « الامير » ••



في اليوم التالي ، كنت احمل الى المدرس الجزء الثاني من « تاريخ الموصل » وعلى الصفحة الاولى منه اهداء بخط عمي « الى الاستاذ الفاضل فلان مع التمنيات » كان الامر بأسره معجزة •

واذ راقبت آثار هذه المعجزة،فقد ازدهاني،ان اكون أنا صاحب هذه المعجزة، رغم ما ارتكبته من آثام ، فلقد تاه مدرس اللغة العربية ، بالهدية عجبا وزهوا ، واحمر وجهه هنيهة ، وازرق ، وهو يقلب صفحات الكتاب ، ويتأمل من طرف خفي ، الاهداء الذي يتصدره •• ثم يعيد النظر اليه بصراحة •• وابتسامة صادقة تزين وجهه •• حتى دق الجرس ••

حسنا ••

ما الذي حصلت عليه ، بعد كل هذا ؟

بل •• ما الذي كنت ارجوه ؟

ان مدرس العربية ، يعرفني الان ، ويميزني ، ويبادرني بمناسبة وبغير مناسبة ، مناشدا أياي أن اسلم على «العم» •• وان الطلبة ، ليتابعون ذلك • بشيء من السخرية ، التي كنت احيلها الى الحسد •• حتى ان بعضهم صار ، ما ان يلتقيني حتى يروح يهمس لي ، مقلدا بنبرة مدرس اللغة العربية :

ــ سلم على « العم » ••

بل لقد زاد احدهم ذات يوم ، فسألني على ملأ من بقية الطلبة ••

ــ الا تقول لنا من يكون «عمك» هذا ؟

اصابني سؤاله في مكان من كرامتي ، بحيث احسستها توجعني ، وما كان ممكنا ، حرصا على هذه الكرامة نفسها ، سوى ان اكظم وجعي ، وان اروح احدثه بانفعال عن هذا (الامير) الذي نشأت على محبته واحترامه • •

كنت اتحدث ، وهو يرنو الي باسما • مستروحا ما احدثه سؤاله في من انفعال ، حتى اذا انتهيت ، لم يزد على أن قال ببساطة :

ــ عجبا •• ايكون عمك هذا مهما الى هذا الحد ، وما من احد منا قد سمع بأسمه ؟



وراح يشـــهد الطلبة ، وهو يغمز لهم •• فضــحكوا •• واســودت الدنيــا في عيني ••

بدا لي ان العالم ، صار ، فجأة يفتقر الى العدل والتوازن ، وانني اعيش وسط مجتمع كافر ، لا مجال فيه للعدل والتفاهم ، وبدون مناسبة ، تذكــرت على غير ارادة مني أبي الذي كان قــد مضى على موته بضــعة شـــهور •• وسمعت يا للعجب ، صوته ، وهو ينشد في الكنيسة ، احد اناشيده الحزينة•• وخفت ان تدمع عيناي ، لفرط ما احسسته ، من غضب وحزن •

اجبته بصوت قبيح :

ــ ذاك لانك جاهل وغبي ••

ضحك الطالب من طريقتي في الاجابة •• وقال لي بمرح حقيقي :

ــ صحيح •• أنا غبي كما تقول •• ومع هــذا •• فحين تعود الى البيت •• « سلم لي على العم •• » !

ضحك الطلبة جميعهم • وهم يتابعون حوارنا ، ولست ادري كيف امكن في تلك اللحظة الصعبة من حياتي ان اضحك معهم ، فينتهي الامر عند هــذا الحــد ••

هل انتهى حقا ؟••

ابدا •• فلقد كنت ، وسأبقى ، واحدا مــن اولئك الذين اعتادت عمتي الحولاء ان تصفهم بأن « الذي فيهم •• لا يخليهم •• » • والا فما تفسير ، المشاكل التي يضعون انفسهم فيها ، هكذا ، مجانا •• وبدون سبب معقول ؟••

لقد ظل أبي يجهد في ان يعلمني الاخذ بقاعدته الاخلاقية ، التي ظل يؤمن بها ، حتى حانت وفاته :

ــ لا تتدخل في ما لا يعنيك •• وقبل ان تقول شيئا •• او تفعل شــيئا •• فكر •• لقد اعطاك الله مخا للتفكير •• فاستخدمه ••

وكنت أجد في نصائحه هذه ، منتهى العذاب •• ذاك انني ، ما استطعت قط ولن استطيع ، ان افكر بمخي وحده •• ثمــة في كياني ادوات للتفكير ، اعتادت ان تستجيب للحياة ، حتى خيل لي أحيانا ، انها هي ، المخ الذي يتحدث



عنه ابي .. ولا بأس ..

انه لاستاذ مهيب ، استاذ علم النفس هذا .. وهو الصـف الثالث مـن « دار المعلمين العالية ... » وأنا ادخل القاعة (٢٢) .. واثق الخطى .. تسكنني الكتب التي كنت قد قرأتها امس واول امس ، عن علم النفس ، محكوما بنوازع فضول سيبقى طاغيا ، لمعرفة ما ينطوي عليه الاخرون .. وما تنطوي عليـه نفسي ..

« ارسين لوبين » من نوع جديد .. ولقد كان استاذ علم النفس طاغيا حقا ، بفضل عينيه الحاذقتين ، وبقوة امتلاكه للصف طوال المحاضرة ، وبمجد انه استطاع ان يقنعنا ، او يقنعني انا على الاقل ، بانه يعرف كل شيء ، ويملك كل شيء ...

ومنذ لحظات اعجابي الاولى بمدرس علم النفس ، اتخذت قراري ، بان على هذا الاستاذ ان يكتشفني ..

كان يمكن ان آتأنى ، حتى يأتي الامتحان .. كان يمكن ان اصبر ، ريثما يجري الامر ، على نحو مألوف ..

ولكن الذي بي .. ما كان يخليني .. فالاستاذ يتحدث ، وتتحرش المعلومات التي يوردها ، بمعلومات كنت قد قراتها ، قبل قليل في كتاب ، او كراسة او مجلـة ..

واني لاستثار حقا .. فأبدأ بهز راسي ، موافقا على ما يقوله الاستاذ .. وقد اهمهم مؤمنا على كلامه .. بل قد تبلغ الاثارة عندي ، حد ان اسبقه ، بل حتى اقاطعه .. وهو من على المنصة يرنو اليّ بعينين نفاذتين ، وابتسامـة محدودة .. فأتشجع .. ولن البث ان آرفع يدي ، فاقطع المحاضرة ، بتعليق، او باشارة الى مصدر ، بل حتى بمحاولة تصويب ..

ظل هذا يجري لشهرين كاملين .. ثم فجأة ، سمعت صوت اسـتاذ علم النفس يقول بقوة ووضوح :

ـ انت بليد حقا .. وقليل الحياء ..

لم اصدق اذني .. وخيل لي لوهلة ، انه انما يخاطب طالبا سواي ، واذ لم يكن سواي قد تحدث فقد سألته :

ـ انا ؟

ـ اجل انت ..

ومن جديد ، بدالي ان العالم ، صار ، فجأة يفتقر الى العدل والتوازن ، وانني اعيش وسط مجتمع كافر ، لا عدل فيه ، ولا تفاهم .. وعلى غير ارادة مني ، تذكرت ابي الذي كان قد مضى على موته بضع سنوات .. وخفت ان تدمع عيناياي .. فنهضت وغادرت الصف ، ورحت افكر بطريقة اداهع بها عن كرامتي .




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر

الــوزن





واجهني بعين واحدة ، وقال لي ، وهو يعيد الي قصيدتي :

ــ هذه ليست قصيدة !..

ورأيته يمسح لعابه بلسانه عن شفته . فكرهته مرتين .. حتى لقد هممت . ان اقول له . بدونما اي قدر من رحمة . انه ليس اكثر من اعور . «فرج» الاعور ، وأنه ، ما كان ولن يكون ذات يوم مؤهلا لان يميز بين الشعر والنثر .. ولكنني تمالكت نفسي ــ وحسنا فعلت ، لانني ، لو قلت له ذلك ، ورأيت الالم الذي سأسببه له ، لما استطعت ، ان اغتفر ، هذه القسوة ، التي لا مبرر لها ..

اجبته بصوت مرتعش لفرط انفعالي :

ــ لماذا يا .. فرج ؟

قال وهو ينظف انفه باصبعه :

ــ ذاك لانها تفتقر الى الوزن ؟

ــ أهو ضروري ؟

ضحك .. وهو يخرج رأس سبابته من انفه : واجاب بحكمة

ــ لا تكون القصيدة قصيدة .. الا اذا كانت موزونة ..

كان في نبرته ، وهو يقول ذلك ، اطمئنان واضح ، وقناعة حاسمة .. بحيث بدأت للتو ، احس الذلة ، وسألته :

ــ وقصيدتك تلك ؟

ــ ما بها ؟



ـ موزونه ؟

ـ أجل ..

قال ببساطة ، وصدق ، وأضاف :

ـ انها من الوزن الطويل ..

ـ الطويل ؟..

سألته بذلة .. فأجابني :

ـ أجل الطويل ..

سـكت ...

ماذا كان بوسعي ان ارد عليه ، ما دمت لا اعرف أي شـيء عن هـذا الوزن ، الذي يتحدث عنه . ثم ، لا اعرف أي شيء عن وزن بالذات يسـمى «الطويل» . واوزان اخرى ، لابد يعرفها «فرج» واجهلها انا جهلي لكثير من الحقائق ، التي احاطت وما تزال تحيط بي ؟

الم اكن لسنوات اجهل « ما ينبغي الا يجهله كل فتى .. وكل فتاة » ؟ الم تنقض سنوات حتى قيض لي ان اعرف ماذا يعنيه الزواج ؟. ومـاذا تعنيه السياسة .. وكيف ينتمي الانسان الى حزب ؟ و و ..

يا للالغـاز !..

والان .. وانا اكاد انجح من الرابع الـى الخامس الثانوي اواجـه في بداية صيف غامض حقيقة ، انني كنت مخدوعا بالشعر ، لسبب بسيط ، هو ان الشعر «موزون» .. وان من بين هـذه «الاوزان» وزن يسـمى «الطويل» يعرفه فرج الاعور واجهله كما يجهل القروي الكثير من حقائق المدينة ..

يا للصـغار ..

في تلك اللحظة كرهت الشعر .. واتخذت قرارا سـريعا (لن البث ان اتراجع عنه ، بعد قليل) هو انني احتقر الشـعر ، واحتقر منه بالذات هـذا



الوزن «الطويل» •• وفــرج •• ومدرس اللغة العربية •• وكل ما ينبغي ان يكون لــه وزن ••

ماذا ؟ اهو بطيخ ليزنوه ؟ وكيف يكون الوزن (طويلا) •• يا لها مهزلة•• معقول ان يكون الوزن ثقيلا ، او خفيفا •• اما ان يكون طويلا ، فتلك نكتة مريرة •• وانني لاتذوق هذه المرارة امام عين فرج ، مزدريا جهلي ، الذي كنت مصمما على اخفائه بعناية ••

لو انني لذت منذ البداية بفرج ••

لو انني كنت من الطيبة بحيث اعترفت له ، انني لا اعرف اي شيء عن هذا الوزن الذي تفتقر اليه قصيدتي •• طويلا •• أم قصيرا ••

لــو ••

ولكنها المكابرة ، ظلت تســتحثني ، حتى وجدتني وحيدا في البيت ، وليس ثمة من اشكو له حاجتي •• وحيرة روحي ••

كنت اجلس في الايوان ، متطلعا الى والدتي ، وهي دائبة على خياطــة ثوب اختي •• مستذكرا ، تلك الايام السعيدة ، التي ، كنت الجأ فيها اليها ، فتستوعب ، وانا بين احضانها ، كل اسئلتي ، وهواجسي ، وشكوكي ••

تذكرت عمتي الحولاء •• وتخيلتها ، بكثير من الحزن ، ما تزال علــى قيد الحياة ، وسمعتها وهي تقول لي :

ــ عيب عليك •• ملعون ابو كل الاوزان •• تعال لاعطيك بعض الحلوى •• الى من التجيء ؟•• لمدرس العربية ؟

خفت فضيحة جهلي •• وعز علي ان ابدو امامه ، اخرق ، ومغفلا الــى هــذا الحــد ••

وتساءلت من اعماق حيرتي : الابد من الشعر ؟••

لــذت بعمي ••

ذاك الامير الذي زين لي ســحره محبة الكتابة ، ونشــوة الشــعر ••



فاعطاني في اليوم التالي كتابا ، قديما ، واوصاني ان اصبر على قراءته ..

اصبر .. ولم لا ؟ حسب ان اتعلم كيف اجعل قصائدي «موزونة» . وعلى الوزن «الطويل» بالذات . نكاية بفرج وبنفسي .. حسب ان اكتشف هذا الميزان الذي لا يشبهه ميزان .. حسب .. وسأفعل ذلك . باوسع ما استطيع من دأب وصبر ، رغم يقيني ، انني لا اصلح للصبر والمثابرة ..
أخذت الكتاب الى زاوية .. وبلهفة رحت اقرأ :

لم تمض ساعة ، حتى اطبقت الكتاب بمرارة .. وفي ذهني تتداخل معميات من تعاريف ومصطلحات ، وتفريعات ومسميات ، ونماذج .. و .. لا ..!

هذا الوزن ، اصعب من علم الحساب والجبر ، وكل معضلات الرياضيات ثمة اولا هذه البحور .. لماذا «البحور» ؟
ولكل «بحر» اسم .. فهناك «الطويل» .. والكامل .. و «المقتضب» اربعة عشر بحرا .. كل «بحر» هو وزن لوحده .. ولكل وزن رموز.. «فعولن..» «فاعلاتن..» «فعلن..» ولكل رمز انواع ..
ولكل نوع .. أضرب .. ثم لابد من حفظ هذا كله عن ظهر قلب .. أي يأس ..

انا الذي ، بسبب غموض الهدف ، بقيت عشر سنوات ، اعاني من حفظ جدول الضرب .. وسأظل ..

اطبقت الكتاب ، مدركا انني لفرط ما احسه من عجز اغلق دوني للابد باب الشعر ما دام لابد للشعر من وزن يوزن به .. وبحر ينبغي الغرق فيه ..

في حلمي تلك الليلة هربت الى جزيرة تحتشد فيها صبايا جميلات ، كل واحدة منها ، هي قصيدة لا اروع منها ولا ابدع .. كنت اتنقل بينهن مدللا ، مدفوعا بحاجة مبهمة الى الانتقام ، بنوايا الاثم .. وافقت في الصباح ، هادئا



تماما ، وقد نسيت الشعر والبحور واسماء الاوزان وعين «فرج» المريضة ..
واكملت حلمي ، بان غسلت نفسي ..

لكن الرغبة دودة على سطح تفاحة جديدة .. ستظل تدور حولها حتى تجد لها منفذا ، فبعد يومين كان المدرس يقرأ لنا :

يا نائح الطلح اشباه عوادينا — نأسى لواديك ام تأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير ان يدا — قصت جناحك ، جالت في حواشينا

كنت اصغي ، وانا اتأمل حمى ، تنتقل من صوت المدرس الى روحي ، فتمس تاريخي وعواطفي ، وتوقظ في جزيرتي صبايا متمتعات بالذكاء واللطف والمحبة والجمال ..

لم اكن افهم تماما ما تقوله القصيدة .. لكن روحا ، مثل رائحة نسيتها كانت تتناهى من القصيدة ، فتملأ صدري فاذا انا انسان اخر غير ما كنته قبل قليل .. مخلوق مستعد لان يبكي او يضحك او يحب او يكره .. بل اذا بي مستعد لان أفوج ، كما فاحت هذه القصيدة ، واصدر شذى رغبات كانت مكتنزة في تاريخي الشخصي وتاريخ عائلتي ..
اليس هذا هو الشعر ؟
بل .. اليس هذا هو الوزن ؟

ام هي موسيقى كل ذلك .. موسيقى الشاعر .. وموسيقى الشعر .. وموسيقاي انا بالذات .. تتصادى .. وتتبادل علاقة هي من قوة الحب .. والصبوة .. والرغبة في التوافق ، ما يكفي لاقامة عالم بنفسه ..

ادركني السحر .. فصرت لوهلة ، مقتنعا ، بأنني صالح له ، وان الوزن والشعر ليس ذاك الكتاب الذي اعطانيه عمي ، وطلب مني الصبر عليه .. بل الشعر ، هي هذه الحالة ، التي احسها دون ان اعرفها ، وانتمي لها ، دون ان اتصل بها ، وانتظرها ، وانا مؤمن بضرورتها .. وبضرورتي لها في آن واحد..



ليس هو المعنى •• ولا هو الـوزن •• ولا التوافق •• ولا العناء •• بل هي قوانين الخصب والجنس ، غير المدركـة ، والتي لا ينبغي لاحـد ان يدنسها بادراكها ••

كنت احس هذا المعنى ، دون ان ادنسه بالتأمل •• بل لعلي كنت ساقطا تحت تأثير الحدس به ، كما يحدس المؤمن ، وجود الله وحضـوره ، بدنمـا اسـئلة ••

سألت المدرس ، وانا الحق به ، بعد انتهاء الدرس :

ــ من ايما وزن هذه القصيدة ؟

قـال :

ــ البسـيط ••

ولشدة فرحي ، حاولت ان اتعالم ، فسألت المدرس :

ــ اليست من البحر الطويل ؟

ضحك المدرس من جهلي •• فاكتفيت ، واسرعت الى الكتاب •• كنت اتجه الى البيت متفائلا بالاسم وحده «البسيط» وبمجرد التلذذ باسـتذكار البيتين الاولين ••

« يا نائح الطلح •• مـاذا •• »

« قصت جناحك •• اشباه عوادينا •• »

« ام تأسى لوادينا •• »

في البيت •• كان البحر البسيط ينتظرني بسيطا واليفا وصالحا للتفاهم••

مستفعلن فاعلن مسـتفعلن فعلن   مستفعلن فاعلن مسـتفعلن فعلن

كيف يمكن ذلك ؟••

مستفعلن فاعلن مسـتفعلن فينا   مسـتفعلن فاعلن جفـت ماقينا

« اضحى التنائي بديلا •• »

شـكرا •••

انه لجنون حقا .. وانا مجنون بمجرد احساسي ، انني على حافة نبع ، اشم رائحة الماء والموت والعشب .. انني اتعلق بوحي صادر عن محض حاجتي تشبث المحكوم بالاعدام ، برغبته في الخلاص .. ذاك انني لن البث بعد سنوات ان اكتشف ان المحكوم بالاعدام لن يموت ، الا بتأثير احساسه بأن موته لابد منه ..

لن أموت ..

وسأكتب الشعر :

« مستفعلن فاعلن ..»

وتسقط كل الاوزان .. هذا البحر «البسيط» صديقي .. وأنا مستعد، بمجرد صدفة ، لا اعرف حدودها ، ان اتملقه واداجيه « يا نائح الطلح ..» .

قلت لنفسي مباشرة :

« يا صادق الوعد .. »

ولانني لم اكن واثقا .. فقد استخدمت خوفي ، لمزيد من الحذر .. وشطبت على ما كتبته ..

وكتبت على الورقة :

« يا ربة الحسن .. » وكنت اكثر صدقا .

ثم خفت من الاحساس بالغش فشطبت «الحسن» وكتبت «الايك»

اليس ذلك غريبا ؟

« يا ربة الايك ..»

قال المدرس : الايكة ، هي الشجرة التي اوصافها كذا في كذا .. فكرهتها مباشرة ، لمجرد ان اسمها لم يعجبني .. ولمجرد ان الصوت فيه بدا لي قريبا من لفظة بذيئة .. ومع هذا :

« يا ربة الايك ..»

كنت قانعا بالمواربة .. ونسيت « ربة الحسن » واذ كنت على عجلة من



امري •• فقد تساءلت امام الورقة والقلم وحمى الشعر ••

ومـاذا بعـد ؟

« يا ربة الايك ••• اشباح امانينا ••»

مرحى •• وماذا عن « اشباه عوادينا ••• » ؟

سيطر علي « البسيط » ••

كنت اطفو على موج من احساس عام بموسيقى منه طاغية ، تحيط بي ، فاذا كل الاصوات تنتمي الى هـذا العـالم الرتيب •• واذا كل الكلمات ,, الحروف •• تتشكل وفق شهوة لا فكاك منها ، تتردد فيها القافية مثل لازمة في مناحة : « امانينا •• رياحينا •• تهانينا •• ملايينا •• قوافينا •• نا •• نا••

ولقد كنت متعبا لفرط ما في ذلك من اسر ••

وكنت سـعيدا ••

بعد ايام سألني الامير ، عما ان كنت قد افـدت مـن الكتاب ، فأريته محاولاتي •• ولم تكن تزيد عن ثلاثة ابيات ، احتلت على كتابتها •• فابتسـم لي مشجعا •• ومرة اخرى اوصاني بالصبر ، واقترح علي ان اجرب «الرجز» قال لـي :

ــ انه جحش الاوزان •• يستطيع كل من هب ودب ان يركبه ••

ضحكت لجحش الاوزان هذا ، واحتقرته •• احتقرت الاوزان جميعها، وابقيت للبسيط احترامي ومحبتي •• فيا للنفاق !•

هكذا لكل بحر ، اعطانا مدرس العروض في الصف الاول من دار المعلمين العالية ، بيتين من الشعر يتضمنان اسم البحر ، وتفعيلاته اضافة الى شطـر موزون من آيـة قرآنية ••

ولم يكن ثمة مناص لمن يريد النجاح عند مدرس العروض ، ما دام ينطوي على كل ذلك القدر من الدقة والتعصب ، ان يصبر ويحفظ ويفهم •• والا فلا نجـاح •••

وانشغلنا لفصل كامل بهوس العروض •• بمصطلحاته •• وبحوره ••• وزحافاته وضروبه وتفعيلاته ثم بهذا الفن الذي اسمه . التقطيع • نراهن عليه



لاثبات براعتنا . ونحن نضحك ملء صدورنا كاتمين خوفا دائما من الخلط بين وزنين .. او الخطأ في نسبة تفعيله الى غير موضعها ..
كنا جميعا ساقطين تحت وطأة نوع من التحدي اقرب شبها بالتحدي الذي يحسه من يتصدى لحل لغز من الالغاز ... ولقد كانت براعة اي منا في الهيمنه على هذا (العلم) المعقد . تحتسب له . وتصنع له نفوذا . وجاذبيه . تقربه من الاخرين ..وبخاصة من الاخريات ..
ولن انسى . ملك العروض ..
طالب وسيم ، ادركه الشغف بالنفوذ الذي تقدمه المعرفة .. فلقب نفسه بانه . ملك العروض . وصنع لنفسه شهرة جمعت حوله اكثر من طالبة ..

وعوافي ...
فان الامتحان علىالابواب .
وسوق . الملك . نافقة وهو ابدا بين حشد من اللائذين .. واللائذات به. يبسط لهن معرفته . مستخدما . كل ما يملك من طاقة على الاقناع ..
وندخل الامتحان ..
ونجيب على الاسئلة ...

ويخرج . ملك العروض . اول م نيخرج من قاعة الامتحان فنحسده .. ونقاوم خوفنا من الخطأ .. ثم نغادر الى النادي لنمتحن اجابتنا باجاباته .. فاذا باكثرنا . قد اساء التقدير .. واخطأ في الاجابة والملك ، دونه . متوج تماما .. منتش بسطوته . وقدرته على ان يكون كيسا حينا ورحيما حينا ..
ثم تأتي العطلة وتنتهي وتعلن النتائج . ناذا . بملك العروض . واحد من الراسبين في علم العروض ...

في الصف الخامس الاعدادي ، كانت قصيدتي ، التي من بحر «البسيط» قد اكتملت .. عشرون بيتا . انفقت من اجلها ماء وجهي ، وعيني ، واحتملت بسببها السخرية المبطنة ، والتشجيع الذي لا موجب له ..
ثم زدت على ذلك فغامرت ..

ذاك ان «الاعدادية» . اعلنت عن مسابقة في الخطابة والشعر فلم اتردد في ان اخذ قصيدتي الى المسابقة ؟.. وما ان اسلمت الورقتين الـى مـدرس العربية ، حتى بدأت احلم بالفوز ..
ـــ افــوز ..
ـــ لا افــوز ..



كنت احس ان نبضات قلبي تتخذ ايقاعا ، على هذا المنوال • فانا منتش ومعذب في آن واحـــد ••

ما كان يهمني الفوز كثيرا • بقدر ما وجدت نفسي خائفا من الفشـــل • وكانت خواطري ، لا تنفك تعذبني بوساوس موضوعية حقا •

يا لك من مدع •• انت تعرف حقا انـك لم تكتب هـذه الابيـات الا بصعوبة •• وان اكثر من يد امتدت فأصلحت لك من هذا البيت •• او مـن سوله •• وهي قصيدة واحدة •• وبحر واحد •• لا تعرف سواه •• والمعنى تافه •• والابيات مفككة ••

ـ كفى ••

كنت اذود هذه الوساوس عن نفســي ، كما اذود ذبابة تحاول ان تحط على ارنبة انفي •• وعبثا •

فرج الاعور •• اجدر منك •• وذاك الولد «غازي» الذي سينافســك عنده دفتر فيه اكثر من عشرين قصيدة فمن اين لك هذه الجرأة على ان تراهن• وان تدخل السباق •• افرض انهم اتهموك •• خذه بنظر الاعتبار انهم طالبوك بقصيدة اخرى تثبت لهم انك صاحب قصيدتك هذه حقا •• تصور ان •• أي عذاب هذا ••

عذاب تتولاه افكارك •• فكيف بافكار ســواك •• وشــكوكهم •• وحســدهم ••

ربي والهي ••

اجل • التجأت ، كما في كل حالات الضيق ، الى الصــلاة ، وحين لــم يكفني ذلك ، هربت الى رذائلي • فتجرأت حــين خلوت الى (جيم) • • ولم افز بسوى الحزن والندم ••

عدت ذاك المساء • احمل ضعفي في ملابسي المتسخة • وجلســت الى منضدتي حزينا ، لا يراقبني ، سوى ملاكي الحارس • والوزن البسيط •



في ذلك الزحام من القلق والشك والندم والاستسلام والنية الطيبة ..
حين كان المساء رقيقا ، واصابع البحر البسيط تربت على جبيني بايقاعها الانثوي الودود .. ولدت قصيدتي الثانية :

الحب امرضني والحب داواني والحب بصرني والحب اعماني
يا للسعادة ..

لقد كتبت البيت الاول . بدون ايما تردد ، وببساطة ، وسهولة ، حتى لكان ملاكا ما .. كان يملي علي ما اكتب وكادت عيناي تدمعان لفرط سعادتي ..

كان فرحي لما صنعته اكبر مني .. حتى انني لم استطع احتماله لوحدي، ولم املك ، لفرط لهفتي ، ان اتأنى عليه . وان انتظر الملاك ليكمل في صنيعه .

خرجت من الغرفة ، ملفوفا بتلك الامسية ، ابحث عن احد اشهده على المعجزة .. واذ لم يكن ثمة من الجأ اليه سوى «فرج» فلقد طرقت عليه الباب .. ووضعت (قصيدتي !!) تحت عينه الواحدة .. وسألته :

ـ هه .. ماذا تقول ؟

ـ ماذا اقول ؟..

ـ قل انه غير موزون ؟..

ـ لا .. هذا من البحر البسيط ..

ـ وبعد ؟..

ـ ماذا بعد ..

رأيت على عتبة (فرج) دم حماستي .. ورجعت مخذولا .. يصاحبني ملاكي الحارس ، ويلقي ، علي نصائحه ، التي سأسمعها دائما . بعد فوات الاوان .. وخلاصتها ، ان احتمل فرحي ، وان اكتمه ، ريثما يكتمل ، دون ان افسده بالتهور واللجاجة ..

نمت تلك الليلة حزينا ..



وطول اسبوع كامل ، ظل «البيت» وحيدا ، لا استطيع ان اضيف لـه كلمة •• او حرفا •• حتى كاد اليأس يقتله ويقتلني •• ثم فجأة •• وحين كنت في «المغاسل» سمعت صوتي يقول لي :

والحب صيرني عبدا لعاطفتي   وسـدت بالحب اخواني واخداني

رددت الكلمات وانا في المغاسل بحرص ، حذر ان انساها •• رددتهـا بورع ، وحذر ، واحترام ، مستذكرا نصـائح ملاكي الحارس ووصـاياه في التـأني ••

ثم ••

بهدوء ، وروية كمن يتسلل في رواق سعادته على رؤوس اصـابعه •• حملت نفسي الى اقرب ورقة وقلم •• وكتبت البيت الثاني ثم الثالث •• وحين كنت اوشك ان اكتب المزيد ، سمعت صوت «جيم» الشهواني في فناء الدار ، ففقدت الوحي ، ورأيت الملاك الحارس ينظر لي غاضبا •• ولم أبال ••

خرجت مـن وحدتي ، اتذوق انتصـاري ، وانا غير مسـتعد قط لان اعترف بفضل احد عليّ ••

من ملاكي الحارس هذا ؟

ما الوحي •• وقد كنت وحيدا في «المغاسل» وما دام ذهني كان منصرفا الى غير الشعر والحب ؟••

انا اذا •• وليس سواي •• و «جيم» وحدها هي التي اوحت لي بالمرض والعافية • وهي وحدها المسؤولة عن عماي وبصيرتي •• كما انها سبب احساسي بالسيادة والعبودية •• وستظل مسؤولة عن ذلك الى الابد ••

ولقد عرفت ذاك بمجرد ان نظرت الى وجهي ، حتى انهـا لم تملك ان تسـألني :

ــ ما بـك ••



ــ لا شيء ..

قلت بنبرة ملك يعرف موقع تاجه من مفرقه ..

وسـمعت اختي تقول :

ــ **بل بك شيء .. ان وجهك شاحب .. وعيناك تلتمعان .. ماذا فعلت ؟..**

حكتني مكابرتي على رقبتي . واغرتني بان ابوح بسري ، ولكنني كنت معتصما بحالة الملك . فأبيت .. فبدا لهما وضعي سريا وباعثا على الفضول لابعـد الحدود .. بحيث ان «جيم» حين اختلت بي ، رفضت ان تحبني الا اذا قلت لها ..

ــ **مـاذا اقول ؟..**

الان عندي قصيدتان ..

وثقتي بنفسي ، تمشي معي ، وتدل علي ..

و «فرج» .. يتملقني بالكلام على الوزن «البسيط» .. واسرار البحور الاربعة عشر .. وانا محمول على دوار لم اجربه من قبل ، اجهد بسبب ما فيه من نشوة وعذاب . على ان اتوازن حتى تحين ساعة المسابقة .. ولقد حانت

وسمعت عريف الحفل يعلن اسمي ..

ورأيت فتى يشبهني ، يصعد الى المسرح .. ويقف وراء المنصة .

تماما في المكان الذي صعد فيه قبل شهرين ليمثل دوره في « المروءة المقنعة »

وسمعت صوتي .. والتصفيق ..

وبدا لي انني احلم حقا .. حين قالوا انني فـزت بالجـائزة الاولى !

واعتراني خوف فظيع من ان استيقظ من حلمي . .




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر

المســرحية




مكتبة
الفكر الجديد

في ذاك العام ، دعت لجنة التمثيل ، في الاعدادية ، الطلبة الذين يودون الاشتراك في تمثيل مسرحية « المروءة المقنعة » للحضور في قاعة المكتبة الساعة الرابعة من عصر الاثنين المصادف كذا من الشهر الجاري ..

لقد امسك بي ، هذا الاعلان ، المكتوب بالطباشير ، وبخط سيء ، وأنا اوشك أن اغادر المدرسة ، والقى بي في خضم احلام آسرة ، ستظل تحملني ثلاثة شهور ، حتى تطوح بي على ساحل من رمل وريح .. فاستريح ..

كنت ، مذ شهدت مسرحية «هوراس» ، وحفظت نصوصها ، أمني نفسي، بفرصة كهذه ، ان يأتي يوم ، يعهد فيه الي بدور اتقمصه .. وكنت لا أفتأ أرى نفسي على خشبة المسرح ، مزينا برغبتي في أن أنوب عن انسان ما .. طاغية أو مظلوم .. ملك أو مهرج .. مخولا في أن انطق عنه ، او اصرخ .. أو اضحك ..

وما كان النطق على الخشبة ، ليشبه نطقي .. ولا الضحك .. ولا البكاء بل هي سورة .. تعتري الانسان ، كتلك التي تنتابه وهو في حالة ميلاد يتوسلها من أجل ان يكون او لا يكون .. فاذا الصراخ يتناهى من رؤوس اصابعه .. والضحك من تحت جفنيه ..

ولقد اجتمعنا لنقرأ المسرحية ..

كان ثمة في القاعة مدرس اللغة العربية .. ومدرس الاقتصاد .. ذاك المدرس الذكي والانيق الذي اعجبت به أيما اعجاب .. ثم لم يلبث ان التحق



بنا مدرس الانكليزية المصري ، الذي سيتولى منذ تلك اللحظة اخراج المسرحية ..

اصغيت متضايقا الى مدرس اللغة العربية ، وهو يقرأ الحوار ..

وتعجبت ، كيف يمكن ، أن يؤدي الحوار في مسرحية ما ، شعرا .. وحزت القافية في ذوقي ، وتكسرت في السياق .. وعطلت قدرتي على المتابعة والانفعال ..

أننا في الفصل الاول ونحن في منزل «خزيمة» .. وان خادمه «عمرو» ـ ذاك العبد الاسود ـ ليخبرنا بما آل اليه أمر سيده .. وقد ضاقت به أيامه، فهو لا يكاد يملك ما يشتري به قوت يومه ..

ويحي وويح سيدي أزرى به ضيق اليد
أطال من رقاده لكنه .. لم يرقد ...
كيف ينام وهو طاوي البطن لم يزود
قد لزم البيت لزوم راهب لمعبد
ولم يكن عن الندى ولا الوغى بقعدد
أجل ..

ضايقتني القافية ، وصدمتني « أزرى » و «قعدد» و « طاوي البطن » وتساءلت ، وأنا في غمرة من الاحساس بعدم القدرة على التقمص : كيف يمكن أن اؤدي دورا كهذا ، اذا ما اسند الي .. واتخذت نصف قرار ، بنصف حماسة .. انني سارفض دور «عمرو» .. وسانحاز من كل قلبي لان أكون «خزيمة» مثلا ، وقد استطاع الوصول الى الخليفة فعينه واليا مكان «عكرمة» . مشهد ظالم لا يمكن نسيانه ..

ان «خزيمة» لا يدري أن «عكرمة» هذا ، هو الذي جاءه ليلا ملثما ، واعطاه ، كيسا فيه الاف الدنانير ، منتحلا اسم « جابر عثرات الكرام » .



و «عكرمة» غير مستعد لان يفضح صنيعه ، فيعتذر «لخزيمة» عن النقص الذي في بيت المال ، وهو تماما ، يعادل المبلغ الذي حصل عليه «خزيمة» من ذلك المحسن المجهول !..

لا .. «فخزيمة» حريص على بيت المال .. وعبثا يحاوره «عكرمة» :

أقسمت مالي يا خزيمة طاقة أبدا بهذا . ان بيتي خالي
أقسمت .. لم آخذ لنفسي درهما مما اتهمت به .. ولا لعيالي
هبني اقترضت المال حين احتجته أفلا تمن علي بالامهال
قد كنت انوي سده لكنني فوجئت بالاقصاء عن اعمالي

ويرد « خزيمة » :
المال مال المسلمين جميعهم هيهات أنزل منه عن مثقال

ثم يأمر بسجن «عكرمة» ، خاتما المشهد بخلاصة من كلمة صادقة ولكنها غير حصيفة بسبب غفلتها :

هذا جزاء فتى يخون الله في امواله . . ثمن الخيانة غالي ...
اردت أن أكون « عكرمة» ..

وكرهت دور «خزيمة» رغم ما ينطوي عليه من جبروت .. وبدا لي أن مزاج «عكرمة» ، هو أقرب الى مزاجي : أن تقبل الظلم ، وأنت لا تستحقه ، مؤمنا ، أن الظالم ، سيأتيك يوما مستغفرا ، وسيكون ذلك اطيب جزاء ، لكرمك ، وتواضعك ، وشرف قصدك ..

اردت دور عكرمة .. فحرمني اياه مدرس العربية ، حين اختاره لنفسه ، وحين حاولت التلاؤم مع دور « خزيمة » ، نافسني فيه « سعد » ذلك الطالب ، الذي كان اليق مني به ، في كل شيء ...

بعد بضع اجتماعات ، ادركت ان علي ان اقنع بدور « عمرو » ... فليس في المسرحية من ادوار مهمة ، غير هذه الادوار الثلاثة ... حتى ولو كان دور

« سليمان » امير المؤمنين ••• فهو مجرد دور ثانوي ••

ورحت اجرب •••

كان الامر صعبا •• وكان اصعب ما فيه ، احساسي ، انني لست «عمرو» •• وما كنته يوما •• ولن اكونه ، لسبب اساس ، هو ان الدور « الكوميدي» •• وانه يتطلب ممن يؤديه ان يرتضي صبغ وجهه بالسخام •••

ولقد ارتضيت •••

قلت للمخرج في سري وعلني : اعطني الدور •• وسأصبغ وجهي كما تريد ••• لكن المخرج ظل طوال ثلاثة شهور ، يراقبني وانا امثل ، ويراقب « جودت » الذي جاء به مدير الاعدادية لينافسني في ولعي •••

أصعد الى الخشـــبة ، وامثل ••• فاذا انتهيت ، أشار المخرج المصري ، الى « جودت » فارتقى الخشبة •• وراح يؤدي •••

ــ أيهما الافضـــل ؟ •••

ــ يصعب القول ••• وعلينا ان ننتظر •••

ماذا تنتظر ، يا مدرس اللغة الانكليزية ؟ لو كان لك ، أن تدرك ما اعانيه من قلق ،وتشوق ، وغيرة ، وحاجة •••

لو كان لك ، ان تعرف ، انني ،حفظت ، لكي افوز بالدور ــ المسرحية بأسرها ، وستعرف ذلك بعد قليل •••

لو كان لك ، ان تعرف انني ، احلم بدوري ، وان « عمرو » في منامي يعذبني،بوجهه الباكي وعينيه الضاحكتين ••• وانني ساظل لسنوات اردد ، كلما تذكرته •• تلك الابيات التي يختم بها الفصل الاول وهو يعد النقـود التي جاءهم بها « جابر عرثات الـ..ام » :



انـا اعـد المـال في الظـلام — عمـرو غـدا أبصر من حذام

ان بريـق الـذهب الوهـــاج — يشـق جوف كـل ليـل داجي

يا لاثــراء والرخــاء .. والغنى — من انـا ؟ اني لست ادري من انا

انـا سليمان .. انـا هشـــام — قـد خضع العراق لي والشـام

انـا اخـو المنـذر والنعمـان — لا .. بـل انا كسرى انو شروان

لا ...

كان المخرج مشغولا عني بالمراقبة ... والأناة .. والمفاضلة ، وهـو ساقط تماما ، تحت تاثير مدير الاعدادية ، الطاغي ...

ـ إيهما الافضل ؟

ـ جودت .. دون نقاش !.

يقولها المدير ، كمن يحسم مفاضلة بين نوعين من البطيخ ، فامتلىء عارا وحقدا ، وأروح ألوذ بمجرد عينين ضارعتين بالمخرج ، الذي جاء من مصـر ليعلمنا اللغة الانكليزية ... فلا يزيد على ان يقول بهدوء :

ـ صحيح .. ولكن مع هذا علينا ان ننتظر ...

وما اصعب الانتظار ... لو لا انني خلال الانتظار ، كنت اتسلى برسم « الديكور » ...

ثلاثة مناظر ... غامرت ، وانا في الخامس الاعدادي في قبول انجازها ، وانا غير مزود ، الا بذاكرة يقظة عن ذلك المبدع « صبيح نعامة » الذي رسم امامي وانا صبي في السادس الابتدائي المنظر الوحيد لمسرحية « هوراس » .. وبخبرة ما تزال فجة في الرسم .. ثم بعد ذلك بثقة في النفس ، وايمـان ، غير مبرر بالنجاح ..

طلبت طولا من خام اسمر ، خاطه خياط عجوز ، فجعل منه ثلاث لوحات كبيرة جدا ، تغطي صدر المسرح ... وانتقيت ، الى جانب ذلك لكل لوحـة



ستة كواليس تغطي جانبيه ... وذهبت الى السوق ، كما فعل «صبيح نعامة» فابتعت (الريش) الكبيرة .. والاصباغ ...

وابتدأ العمـــل..

لاسبوعين كاملين ، كنت معلقا على سلم خشبي ، في اكبر صالة من صالات مدرسة القسس ارسم ، لوحة « انتقال العذراء الى السماء » ...

اردت ان انجز عملا متميزا فخانتني شجاعتي ، واعترضتني عينا الامير الشهباوان .. فاللوحة الكبيرة لن تلبث ان تعلق في كنيسة الطاهرة ، تذكيرا بلوحة غابرة ، كان احد « البطاركة » قد استقدمها من ايطاليا ، تمثل « انتقال العذراء » ايضا ... وحين جاء العثمانيون ـ يقول الامير مزقـوا اللوحـة بخناجرهم ..

ينبغي ان تكون اللوحة ، باعثة على الورع والمجـد للتعبير عـن معجـزة الصعود ، اما انا فقد تمنيت ان ارسمها ، باعثة على الخوف والدهشة ، بمـا يتعدى الورع الى « السريالية » ، حتى لكان الامر يجري في حلم ... اردت للعذراء وجها رهيبا لشدة ما يحتمله من مجد وغرابة ، في فرحهـا بالقيامـة ورغبتها في الخلود ، وخوفها الانساني من مجرد فكرة الانتقال الى السماء ..

انهيت العمل ، وانا اعاني انكسار حلمي ... ان اللوحة لا تعبر عني ... ولا عن افكاري ، ولا عن حاجتي الماسة في تلك السنوات الى الجرأة ... بل مجرد لوحة دينية ، كانت اكبر من ان تنفذ من باب الصالة .. مما اضطرهم الى فك اطارها ... واعادته خارج الصالة من جديد ...

انهيت الجزء الاول من « الديكور » ...

وحين علقته في صدر المسرح ، ازدهتني براعتي ...

هذا قصر امير عربي في عهد « سليمان بن عبدالملك » ، مبني بالصخـر الازرق ، فهو قريب الشبه بالمرمر الذي يستخرج من مقالع « الموصل » .. والطراز ، يكاد ينتمي الى قصر امير من المدنية نفسها .. وبعد ايام سيرتفع في هذا القصـر صوتا « خزيمة » من اعماق وعيه بمحنته وكرامته :



ايا عمرو ويحك لاتعذل متى ضاق عن طارق فنزلي
ساصبر صبر الجواد الكريم الى ان ارى غمرتي تنجلي
ارى الحر مثل الحسام اذا لم يقلب على النار لم يصقل

كنت سعيدا .. لم يستطع التعب والقلق ان يأكل من سعادتي ... فهذا مناخ اعرف انني خلقت له ... وعائلة من الحب والشعر والفن ، اومن انني انتمي لها ، يوما بعد يوم ...

وها هي « المسرحية » تنضج .. وتكتمل ...

ان ملامحها تتضح ، بعد كل تمرين جديد ... فقبل ايام جاءوا بالملابس، وراح الممثلون يجربونها ، وهم يتبادلون الدعابات .. وجرى توزيع بعض الاثاث الفريق في المسرح ،توسط المدير ، في استعارته من بيت احد الوجهاء ... وعين المخرج اثنين من الطلبة لسحب الستارة ... وكلف مدرس الرياضة، بالاضاءة ... ثم لم يلبث المخرج بعد ايام ان اصطحب مدرسا مصريا اخر ، قال انه سيختار موسيقى المسرحية ...

كل شيء غدا ثابتا .. ومحددا .. سوى دور « عمرو » .. فما زلنا نتبادله انا وذلك الطالب « جودت » .. ونتنافس عليه ، بتآمر مكتوم ، وكراهية غيرمعلنة ... حتى ان احدنا ، ما عاد يكلم صاحبه ..

كنت احدس ان موعد الاختيار وشيك .. واخمن ان المخرج سيعطي الدور « لجودت » ... فانا وهذا ما ساجربه ، طوال السنوات المقبلة ، سيء الطالع ، في كل امر ، اتمناه ، واطلبه ، بقوة وشغف ... حتى لكان ثمة قوة خفية ، تكيد لي في عمق رغباتي ، وصدق حاجتي .. ثم لا تلبث ـ هذه القوة الخفية الساخرة ، ان تهبني ، بين حين واخر ، عطايا ، ما كنت أتوقعها ، ولاادركانني احتاجها ، بكل هذا القدر من الاحساس بالضرورة والتوق ...

ولقد حدث الاختيار ،ذات مساء بعد ان انتهينا من التمارين •• كنت اتابع تفاصيله ،وكأنني ، قد شاهدتها ، في احد احلامي ، قبل ايام • بحيث بدت لي ، هي ايضا ، حلما ، او اجزاء كابوس لا استطيع دفعه او تغيير مجراه •••

قال المدير ، موجها حديثه الي مباشرة :

ــ الدور لجودت •• انــه يؤديه احسن منك •••

اجبت ببلادة :

ــ نعــم •••

لمــاذا قلت ذلك ؟ • لست ادري ،لقد كان احساسي بالقهر ، يصور لي قرار المدير ، وكانه قدر لا مرد له •• رغم انه في تلك اللحظــات ، كــان ، بالنسبة لي، يشبه حكما بالاعدام •••

تطلعت حوالي •• فوجدت « جودت » يبتسم ، ابتسامة خفيفة ، ولاح لي المخرج وكانه قد ضبط متلبسا بالتفاهة ••• ثم استعنت بوجوه الاخرين ، ممن كنت احسبهم ، يحبونني ، ويفضلونني على « جودت » •• فوجدتهم لاهين عن حالتي ••• مدرس العربية ••• ومدرس الاقتصاد ، الذي فهــم بسرعة معنى نظراتي ، فغمز لي بعينه مهونا •• ومدرس الرسم ، الذي كان لابد ان يقر في ساعة كهذه ، اي جهد بذلته لانجاز الديكور ••• (هو الذي ما كان يعرف كيف يرسم صندوقا •• ولا دجاجة) •••

انا وحيــد •••

وفي وحدتي تمنيت الشر « للمروءة المقنعة » ، ولكل ابطالها ••• خزيمة وعكرمة •• وعمرو •• والخليفة سليمان بن عبدالملك •• ولاسامة بن عكرمة ••• ولمؤلف المسرحية ــ ذاك الشاعر المصري « محمود غنيم » •••

اليس ذلك غريبا ؟••



لعلي التقيت « محمود غنيم » في المربد الاول .. لقد تطلعت اليه بحنان جميل ، وكان احساسي بالوفاء .. وقدرتي على الحكم الموضوعي ، قد اكد لي قدرة هذا الشاعر ... فلم آبه كثيرا حين رأيته يخيب لي كل هذه الاحكام الطيبة بقصيدة بائسة قراها ، وهو يعاني وطأة فقره الشعري وشيخوخته ... في حين كنت قد ذقت مجد المحبة التي واجه بها الجمهور قصيدة « اعترافات مالك بن الريـب » ...

لقد تقرر ان يسند الدور الى « جودت » .. وحاول المخرج ، تعويضا عن احساسه بالقصور ، ان يسترضيني باسنـاد دور بسيط لي ، هـو دور « سعيد » احد حواشي الوالي .. فوافقت ، بسبب حبي للمسرح .. وكان علي ان ارفض احتجاجا ...

اقول اليس غريبا ، انني بعد ذلك كله ، كنت ما أزال متشبثا بحلم ، انني سأقوم ، بتأدية دور « عمرو » ؟

ذلكم هو صدق الحاجة ، وقوة الثقة بالنفس ...

فقد بدا لي ، وبطريقة مبهمة ... ان امرا ، لابد ان يحدث ، ويعطل « جودت » عن القيام بالدور .. ان يصاب صوته ببحة ، مثلا ، تمنعه عـن الكلام ... او ان تد هسه سيارة ، فتكسر له ساقه .. او ..

خفت من جرائم حسدي .. ولكن نوازعي ظلت ثابتة ... وحتى اليوم الاول من العرض ، بقيت معذبا ، بشهواتي المجرمة .. خصوصا ، حين تأخر جودت في الوصول الى القاعة ، ساعة كاملة ..

الله ، لتلك الاحلام التي راحت تزين لي ، ما سيحدث .. لو ان جودت لم يأت الى القاعة .. لو انه تأخر عن الوصول ساعة بدء المسرحية ..

تخيلت الارتباك الذي سيحل ....

وامتلأت تشفيا .. وانا اتخيل كيف سيلجأون لي ، لاودي الـدور « وانقذ الموقف » وسمعت اصواتهم ، وهم .. يناشدونني واحدا واحدا ... المدير .. والمخرج ... ومدرس اللغة العربية .. ومدرس الاقتصاد .. و « كلهم » اولئك الذين تركوني ، ساعة المحنة ، اعيش خيبتي لوحدي ... ثم



سمعت صوتي ، ونبرة اعتذاري :

ـ لااستطيع..!

ـ كيف لا تستطيع ؟ ..

سيقول المدير ذلك ... فارد عليه :

ـ لانني لا احفظ الدور ....

ـ لا تحفظه يا بني ... اهذا معقول ؟ .. قبل اسبوعين كنت تؤديه مثل البلبل ...

ـ نسيته ...

اقول ذلك ، وابتسامة عريضة ، تملأ لي كرامتي ... فيضع المدير يده على كتفي ، كما يفعل صديق لصديقه ، ويأخذني جانبا ... ثم يهمس لي :

ـ اعرف انك تقول ذلك ، بسبب انني فضلت عليك « جودت » ابن الشلبي .. واقول لك الان انك على حق .. ولكن ..

ويتلجلج صوته ... ويلحق بنا المخرج ... وتحيط بي نبرته المصرية اللبقة .. ثم يأتي مدرس الرسم ... ويجتمع حولي الممثلون ...

ـ مستحيل ...

ثم استيقظ من حلمي ... فاذا « جودت » قد جاء ، واني لارى كيف يستقبلونه بلهفة .. واتابعه ، وهو يجلس بين يدي « الماكيير » وقلبي ممتلىء حسدا له وهم يصبغون له وجهه بالسخام ، وعلى غير وعي مني ، اجدني اهمس بالابيات الاولى من دور حفظته فصار جزءا من كياني .. « ويحي .. وويح سيدي ... »

وتبدأ المسرحية ...

يرتفع صوت الموسيقى ... فكانه يصدر عن خشب المسرح ، ورخامه وستائره ... ثم في الوقت نفسه من منابت شعري .. ورؤوس اصابعي .. انغام تبدأ بشدة الحنين متخذة صوت نبوءة تفتتح الحدث الموشك .. ثم



تتسلل ، وتتفرع .. وتخف .. وتثقل .. وهي خلال ذلك كله تختلط بحركة الممثلين والحوار ، فتتخذ تأثير متجددا .. حتى لكانها جزء من المحنة ، وطرف من البطولـة ...

ماذا تقول ؟ دع البنين وذكرهم — حركت الاما وهجت دفينا
لا در در أولئك الابنـاء ان — كانوا على اباهم يجنونا
قم يا اسامة .. وارع عهد ابيك — واحفظ سره المكنونا
سجني ، احب الي مما تشتهي — ولو انني فيه مكثت قرونا

والموسيقى ، تستحث (عكرمة) للمزيد .. وتغري المشاهدين بالحزن الشريف ، الذي يغسل الروح ، ويمتنع عن البكاء ...

لقد سحرتني ، تلك الالحان ، وفاجأتني في ذوقي ، ثم لم تلبث ان انطبعت فيه ، فصارت بعض ذاكرتي ... وفتحت لي مبكرا ، افقا جديدا ، على ما كنا ، وما زلنا نسميه « الموسيقى الغربية » .. وسابقى لبضع سنوات استذكر ، ذاك المقطع الحاشد بالنبوءة ، جاهلا مصدره ، مضيعا في توقي للبحث عنه ... حتى تأتي سنة ، طيبة ، اكتشف فيها ان تلك الموسيقى ، تسمى « هنكاريان رابسودي » وأن صاحبها يسمى « ليست » ... « فرانز ليست .. » !

كل اثنين بعد الظهر ، في دار المعلمين العالية ، وفي غرفة الطالبات التي تقع في الطابق الثاني من ((القسم الدراسم))..وهي غرفةمحرمة طوال الاسبوع على الطلبة، بحيث اسماها الطلبة ، غرفة ((الحريم)) .. في تلك الغرفة كانت يحتشد بعض الطلبة والطالبات ، ينتظرهم ((مستر الن)) من ((المعهد الثقافي البريطاني)) هو ((واسطواناته)) و ((فونغرافه)) . فاذا ازف الموعد ، قام ، فتحدث بالانكليزية عن المقطوعة الموسيقية التي يريد تقديمها ... فاذا انتهى ... ابتدأ العزف واصغى الحاضرون ، وقد اتخذ بعضهم وضعا مستغرقا من التفاعل والتلذذ ،

كان يثير فينا ، نحن المتطفلين الرغبة في الضحك ... فينظر الينا «المستر للن» شزرا ، وتتأفف لسلوكنا بعض طالبات «قسم اللغة الانكليزية» متيقنات ، من ان اكثر الطلبة ، لم يحضروا هذا «الاجتماع» الا اكراما لسواد عيونهن او زرقتها ..

عرفنا ، على الرغم منا ، بواسطة «مستر الن» .. وعلى قدر ما كنا نفهم اللغة الانكليزية ، مقطوعة شهرازد ، وطيران ملكة النحل ، وكسارة البندق وبحيرة البجع ، والدانوب الازرق ، وو .... وحفظنا بنفاق واضح ، اسماء بيتهوفن ، ورمسكي كورساكوف وشوبان وجايكوفسكي ، وباخ وخاجا توريان . وو ... وبقيت انا اتاجر بكل هذه الاسماء . مستعملا اياها في جمل مفيدة ، حتى تخرجت ، والتقيت بالصديق «غانم الدباغ» ...

لم افقد الامل ...

كانت حاجتي لان امثل دور «عمرو» اكبر مني . وكان خيالي يتخذ وجه انسان مغدور ، ومذل مستعد لارتكاب الجرائم ..

قلت لنفسي : سيبدأ «جودت» بالتمثيل .. ولا باس..ولا ننتظره حتى الفصل الثاني ، وتخيلته وقد اصيب بالذهول فنسى دوره تماما ... كما كان يفعل اثناء التمارين ... ثم عدلت من ايقاع نزعتي الظالمة ، فرأيته قبل انتهاء الفصل الاول ، وقد اصيب بالدوار ، فسقط ارضا كما يسقط المصابون بالصرع .. وحين اخافني خيالي ، لجأت الى اصلاحه ، فقلت لنفسي : بل لعله سيسيء الاداء ، ويستثار ، لفرط بلادته ، المتفرجون ، فيصرخون طالبين ابعاده واستبداله ، بمن هو أجدر منه ، ومن جديد ، تخيلت ، المدير يتقدم مني ، ويفتح فمه ليقول شيئا ... لولا ان تصفيقا ارتفع من القاعة معلنا انتهاء الفصل «الثاني» ــ مذكرا اياي ، بان علي ان ادخل المسرح لاودي دوري القصير ، الذي لا يتعدى بضعة ابيات من الشعر ، يقولها واحد من حاشية الوالي ، منافق وانتهازي الى ابعد الحدود ...

دعنا .. فان الامر لا يعنينا ❊ من سادنا .. جئناه طائعينا

يا للخلاصة !!



بدا لي ان ابيت اللاذع مكتوب من اجل اهانة ، ذاك المخرج المصري ــ مدرس اللغة الانكليزية ، الذي باع انصافه وعدله ــ بسبب ارضاء المدير ... ومن المدير هــذا ...

رجل ، كان ابوه ، بائع قطن ، وليس اكثر من ذلك ... درس في بغداد ، وصار مدرسا ،ثم صار مديرا ، لان احد اقاربه من (الاغوات) .. هل كان حقا من الاغوات ؟ وهل كان اهلا لكل ما حملته له من ازدراء ؟ ...

ما زال ذاك المدير حيا ، بعد مرور كل تلك السنوات ...
وما زلت اراه بين حين واخر ...

لم يتغير كثيرا ... ربما بدا ، بعد اربعين عاما ، اشد قصرا مما كــان ... ولقد سقطت اسنانه ، التي ظل يعتني بها ، ويوصينا ، من اجلهــا ، ان نعتني باسناننا .. ونحل جسمه ، فبدت سترته اكبر فيه ..

لكنه ، ما يزال يمشي ، كما كان منتصبا ... ولم تزل نبرته التي اعتادها في المهنة ، واثقة ومشدودة وقوية ..

ولقد تعمدت اعتراضه قبل عام ، وسألته ، ان كان يتذكرني .. فتفرس في وجهي ، وحاول ، بصدق ، الاعتماد على ذاكرته ، ثم على ذكائه ، وسألني باعتذار ، مخفي :

ــ اتكون احد المدرسين الذين عملوا معي ؟ ...
وبلع ريقه حين رآني ابتسم صامتا ... وعاد فسألني :
ــ من انت ؟
ــ انا احد طلبتك ؟ ..
ــ اهذا معقول ؟

قالها وهو يستعرضني ، متوقفا ، عند الشعر الابيض الذي احمله فوق صلعتي ... وبدا لوهلة خائفا .. ثم ضحك ، لغــير ما سبب واضــح ..



وانصرف عني ••• وهو يردد ، نبرته الواضحة •••
ــ لا حول ولا قوة الا بالله •••

اجل •• لا حول •• يا مدير الاعدادية •••
كيف لمدير ان يتذكر كل طلابه •••
كيف لمدرس•• او لمعلم •• او موظف •• او سجين •••
فانت بعد اربعين عاما ، لا تستطيع ان تدرك ، مقدار ما سببته لي من تعاسة بسبب انحيازك لـ (جودت) ذاك ابن الشلبي •• وأنت بالقدر ، نفسه، لا يمكن ان تعرف ،مقدار ، ما قدمته لي من احساس بالحاجة الى التفوق ، من اجل ان اتقمص دور عبد
ــ مجرد عبداسود•••

ولكنني ، مضطر ، بسبب الوفاء ، وبسبب حاجتي للاحساس دائما بالحنان ــ الى ان استذكر ،الان ، ساعة وقفت على المسرح ذاته ، لتقدم لي ، في مسابقة الشعر ، الجائزة الاولى ••




مكتبة
الفكر الجديد

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م





السعر ثلاثة دنانير

دار الحرية للطباعة ـ بغداد